الوثائق المتعلقة بالجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي في الأرشيفات الروسية(*)

إيفيم ريزفان

ترجمة : د. عوض البادي
مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

تحتوي الأرشيفات الروسية على الجزء الرئيس لوثائق فريدة تهتم بتاريخ الاتصالات الروسية في الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين(١) (وهي عبارة عن تقارير دبلوماسيين، وقباطنة سفن، وعملاء سريين، وحجاج، وأطباء ... إلخ)، وبعض هذه الوثائق تمت الإشارة إليها

(*) لغة البحث الأصلية هي الإنجليزية :
(Archives Material on Arabia and the Gulf Region in Russia) by Efim A. Rezvan.

(١) لا يوجد إلا عدد قليل من الوثائق التي تخص الفترة السابقة لنهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ويمكن عدها مهمة؛ فروسيا قبل هذه الفترة لم يكن لديها مصالح حقيقية في الجزيرة العربية ومنطقة الخليج. وسأشير هنا إلى وثيقتين تحتاجان إلى مزيد من الدراسة: الوثيقة الأولى هي تقرير باللغة الفرنسية عنوانه "La Horde des wahabis" كتبه في وقت ليس أبعد من صيف ١٨٠٣م رجل فرنسي كان يعمل في بغداد، وحصلتُ على نسخة من التقرير المكون من خمس عشرة صفحة من السفارة الروسية في القسطنطينية، وهو محفوظ في أرشيفين من الأرشيفات الروسية هما: أرشيف الدولة التاريخي في سانت بطرسبورغ (المرجع الأرشيفي ١٠٤٠، ١، ٢٤٥) وأرشيف الدولة للسياسة الخارجية (رصيد "السفارة" ١٨٠٣م، ملف ٢٢٣٥). وأول من أشار إلى هذه الوثيقة وحللها جزئيًا "ألكسي=

ودراستها جزئيًا في كتبي الأخيرة؛ فالكتاب الأول منها كُتب بالاعتماد على تقارير قباطنة السفن الروسية، وهو مهتم بشكل رئيس بالجوانب المختلفة للسياسة الخارجية الروسية في المنطقة. أما الكتاب الثاني فيشمل الوثائق ذات العلاقة بموضوع الحج في روسيا (تقارير استخبارية، مذكرات حجاج، وثائق رسمية ... إلخ) وهو

= فاسيلييف" في كتابه (تاريخ العربية السعودية، موسكو، ١٩٨٢م، ص ص ١٠١-١٠٢). وأعطته هذه الوثيقة إمكانية تحديد تاريخ وصول القوات السعودية إلى كربلاء في مارس - إبريل ١٨٠٢م. وتحتاج هذه الوثيقة إلى مزيد من البحث والنشر. وقد حاولت شخصيًا بالاشتراك مع البروفسور "جوزيف تشلهود Josef Chelhod" القيام بذلك، ولكن العمل تأخر أولاً بسبب مشكلات الأكاديمية الروسية، وبعد ذلك توقف العمل بسبب وفاة الزميل الفرنسي نفسه. وحسب رأي البروفسور "تشلهود" : "إن المخطوطة ذات فائدة بينة حتى لو كانت محدودة... وما فيها ليس جديدًا، ولكنها تؤكد لنا عدم معرفتنا بالدعوة الإصلاحية والدولة السعودية في بداية القرن التاسع عشر، وفيها وصف جيد لما حصل في كربلاء وتاريخه" .

الوثيقة الثانية (رسالة شخصية إلى الكاتب ٢٥ يناير ١٩٩١م). إن المشكلة الرئيسة في دراسة هذه الوثيقة هي غياب اسم كاتبها. فالأرشيفات الروسية لا تحتوي على أي شيء عنه، لذلك يجب أن يتركز البحث عنه في فرنسا. وفي هذا الصدد يتوجب الإشارة إلى أن الكثير من الجوانب التي تتناولها الوثيقة يتماثل إلى حد كبير مع ما أورده "ج. روسو" في :

(Descript du Pachalik de Baghdad suivie d'une notice historique sue le wahabis. Paris, 1809).

ولكن "روسو" أعطى تاريخًا آخر للاستيلاء على كربلاء، وقد يكون ذلك خطأً طباعيًا، أو بسبب عدم الدقة. وأنا شخصيًا أفترض أن نص وثيقتنا هذه يمكن أن يكون مكتوبًا بقلم "ج. ل. روسو"(١٧٨٠-١٨٣١م) الذي كان دبلوماسيًا فرنسيًا ومستشرقًا، وباع في سنتي ١٨١٩ و ١٨٢٥م مجموعته الفريدة من المخطوطات العربية للمتحف الآسيوي (سانت بطرسبورغ)، ومن الممكن أن يكون والده هو من كتبها، إذ كان عند قيام الثورة الفرنسية ممثلاً رسميًا للحكومة في بغداد وحلب.

أما الوثيقة الثانية الموسومة بـ"مشروع السيد سيربر في سبيل الاستيلاء على مسقط في الجزيرة العربية للتجارة الناجحة"، فمحفوظة في أرشيف الدولة التاريخي في "سانت بطرسبورغ" (المرجع الأرشيفي : ١٤٠٩، ١، ٤٥٦٤) وتاريخها يعود إلى سنة ١٨٢٥م تقريبًا وهي توضح واحدة من المحاولات التي كانت تقوم بها مجموعات مغامرة لاستخدام القوة الروسية لمصالحها الخاصة.

هذا وتحتوي الأرشيفات الروسية على مجموعة أخرى من الوثائق الخاصة بتاريخ تربية الحصان العربي في روسيا، وبالبعثات الروسية التي ذهبت بشكل رئيس =

مخصص بشكل رئيس لتحليل الترابط بين مشكلة الحج وسياسات الحكومة الروسية تجاه الأقلية المسلمة في الإمبراطورية(٢).

وأود في هذا العرض أن ألفت الانتباه بشكل أساسي إلى الوثائق المحفوظة في أرشيفات "سانت بطرسبورغ"؛ فأرشيفات موسكو، وخاصة أرشيف الدولة للسياسة الخارجية الروسية(٣)، ومثلها أرشيف الدولة العسكري والتاريخي، والمعروفة بصورة أكبر من أرشيفات سانت بطرسبورغ (أرشيف الدولة التاريخي، أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي، وأرشيف المستشرقين في فرع معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية). وتعود شهرة أرشيفات "موسكو" إلى: "بونداريفسكي"، "ألكسي م. فاسيلييف"،

= إلى الصحراء السورية وإلى فارس بهدف شراء الخيول العربية الأصيلة. وسينشر (مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث) كتابي الموسوم بـ"الحصان العربي في روسيا" الذي يحتوي على تحليل بعثات "شيرباتوف" و"ستروغانوف" والمواد الأرشيفية في أرشيف الدولة التاريخي في سانت بطرسبورغ عن بعثات أخرى : "كيرستتج" (المرجع الأرشيفي: ٤١١، ١، ٢٨ ؛ ٥٤ ؛ ١٠٢ ؛ ٤١١، ٢، ٤٥٧ مؤرخة ١٨٢٢–١٨٢٥م)، "كليم" (٤١١، ١، ٢٤٧؛ ٣١٨؛ ٤٢٤؛ ٥١٥ مؤرخة عام ١٨٣٤ – ١٨٣٨م؛ "اغناتوف" (٤١١، ١، ٦٠٢، مؤرخة عام ١٨٤٠م)، "فالمينو" (٤١٢، ١، ١١٦، مؤرخة عام ١٨٥١م) و"دوختورف" (٤١٢، ٤/١، ٤).

(٢) سفن روسية في الخليج ١٨٩٩–١٩٠٣م. (الطبعة العربية موسكو، ١٩٩٠م؛ والطبعة الإنجليزية، لندن، ١٩٩٣م؛ الحج قبل مئة سنة: عبدالعزيز دولتشاين ومهمته السرية إلى مكة سنة ١٨٩٨م (الطبعة العربية، بيروت، ١٩٩٤م، والطبعة الفرنسية، باريس، ١٩٩٧م) .

(٣) بشكل رئيس ملفات "السفارة في القسطنطينية"، "والأرشيف السياسي" و"ديوان الوزير"، و"القسم الفارسي"، و"الأرشيف السري". والأسماء المهمة للبحث هي: "كروغلوف"، "نيليدوف"، "زينوفييف"، "أغريبوبولو"، "فلاسوف"، "سبيير"، "آداموف"، "أوفسيينكو".

وقد نشر "آداموف" القنصل الروسي في البصرة في وقت لاحق كتابًا مثيرًا للاهتمام بعنوان "العراق العربي" سنة ١٩١٢م، وحسبما أعلم فإنه تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية مؤخرًا. أما "أوفسيينكو" الذي كان يتحدث العربية بطلاقة، وعمل سكرتيرًا للقنصلية الروسية في بغداد، وعمل لاحقًا مديرًا للقنصلية الروسية العامة في بوشهر، فهو قد عرف شخصيًا معظم الشيوخ الذين حكموا منطقة الخليج، وكان على اطلاع على المراسلات المتبادلة مع أغلب قادة شرق الجزيرة العربية.

"ف. ل. بوديانسكي" الذين اعتمدت أعمالهم العلمية المعروفة على ما فيها من وثائق.

تقارير القباطنة :

هل كان الروس مصممين حقيقة على الحصول على "ميناء آمن في المياه الدافئة" في الخليج؟ لقد ناقش المؤرخون لفترات طويلة وجود مثل هذا الدافع. وفي وقت متأخر حسم الدكتور "وليم غرين"(٤) الأمر عندما رفض الفكرة تمامًا. ولكن هل توفر لنا الوثائق من الأرشيفات الروسية الإجابة عن هذا السؤال ؟

يحتوي أرشيف الدولة المركزي للأسطول البحري الحربي على وثائق تلقي ضوءًا جديدًا على السياسة الخليجية لروسيا القيصرية، وتغطي هذه الوثائق فترة قصيرة تمتد من سنة ١٨٩٩م، وهي السنة التي بدأ فيها التدخل الروسي، حتى سنة ١٩٠٣م عندما أصبحت روسيا مشغولة بتطورات الشرق الأقصى التي قادت إلى الحرب الروسية - اليابانية.

كان هناك سببان رئيسان للاهتمام الروسي بالخليج

لقد كان هناك سببان رئيسان للاهتمام الروسي بالخليج: التغلغل الروسي الناجح في فارس عند مطلع القرن العشرين، وتصادم المصالح الاستعمارية الروسية والبريطانية في المنطقة. وقد أدت النكسات البريطانية في المرحلة الأولية من حرب البوير إلى إضعاف المكانة السياسية لبريطانيا في الشرقين الأدنى والأوسط، وهو الأمر الذي حاول المنافسون لها الاستفادة منه. كما أن اهتمام الساسة الروس بهذه المنطقة يرجع إلى كون المشيخات العربية الواقعة على ساحل الخليج تابعة اسميًا للخصم التقليدي لروسيا القيصرية في منطقة الشرق الأوسط وهو

---

(4) W. C. Green. "The historic Russian Drive for warm water port : Anato-
Naval War College Review (Spring 1993). . my of Geopolitical myth"

تركيا العثمانية. وفي الوقت نفسه كانت الخطط الألمانية لمد خط سكة حديد بغداد عبر تركيا، وربط البحر الأبيض المتوسط بمنطقة الخليج، تُنَاقِضُ المصالح الاقتصادية والعسكرية والسياسية الروسية والبريطانية. وهذا أيضًا حفز الاهتمام الروسي في الخليج، ولا سيما في الكويت بوصفها المحطة النهائية المحتملة لهذا الخط(٥).

كانت الوسيلة الأساسية للسياسة الروسية في الخليج إرسال سفن حربية إلى هناك؛ ففي تلك الأيام كانت "سياسة السفن الحربية" هي الوسيلة الأكثر تفضيلاً في الدبلوماسية الدولية. وتحتوي الأرشيفات المركزية للبحرية في "سانت بطرسبورغ" على وثائق أساسية تسجل اتصالات روسيا مع عدد من دول الخليج، وليست فقط تلك التي زارتها السفن الحربية الروسية. كما أن هناك تقارير كتبها الممثلون الدبلوماسيون الروس، ومذكرات ومعاهدات أُرسلت إلى وزارة البحرية من مصادرها مباشرة. إن استعراض هذه الوثائق يتيح إعطاء صورة عن تاريخ هذه الفترة على الرغم من قِصَرِها، إلا أنها مهمة في تاريخ العلاقات الروسية العربية(٦).

---

(٥) للتفاصيل، انظر: التنافس البريطاني الروسي في فارس ١٨٩٠ - ١٩٠٦م، الأرشيف الأحمر، رقم ٥٦، المجلد ١، ١٩٣٣م؛ بونداريفسكي. مشروع خط بغداد وتغلغل الإمبريالية الألمانية إلى الشرق الأوسط. طشقند، ١٩٥٥م؛ بونداريفسكي. السياسة البريطانية والعلاقات الدولية في الخليج الفارسي. موسكو، ١٩٦٨م؛ أ. إس. سيليم. التوسع الألماني في الشرق الأوسط في أواخر القرن التاسع عشر. موسكو: ناؤوكا، ١٩٧١م؛ ل. ج. إيستياغين. التغلغل الألماني إلى إيران والمواجهة الروسية - الألمانية على مشارف الحرب العالمية الأولى، موسكو: ناؤوكا، ١٩٧٩م؛ واي. أ. بوييف. الشرق الأوسط في سياسة فرنسا الخارجية (١٨٩٨ - ١٩١٤م): مقالات في تاريخ الجهود الدبلوماسية الفرنسية في سبيل النفوذ في الشرق الأوسط، كييف: ناؤوكوفا دومكا، ١٩٦٤م، ص ص ١٢٣-١٢٦.

(٦) بسبب جريان العادة بإرسال نسخ من الوثائق المهمة إلى مقرات جميع الوزارات ذات العلاقة، فإننا نستطيع تحديد كيفية الوصول إلى هذا القرار أو ذاك من خلال أرصدة أربعة أرشيفات رئيسة في موسكو وسانت بطرسبورغ: أرشيف الدولة للسياسة الخارجية، وأرشيف الدولة التاريخي، وأرشيف الدولة العسكري والتاريخي، وأرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي. لذلك فإن الوثيقة الدبلوماسية المفقودة لهذا السبب أو ذاك من أرصدة أرشيف الدولة للسياسة الخارجية يمكن أن توجد على سبيل المثال في أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي.

تحتوي مواد الأرشيف على معلومات تتعلق بدائرة واسعة من القضايا؛ فالبحرية الروسية كانت مهتمة بظروف الملاحة، وأحوال الجو، والمرافئ، والوضع الجغرافي لموانئ الخليج(٧). كما أن هناك تقارير حول الحالة التجارية والاقتصادية والسياسية، ولكننا هنا نتوقف متعمدين في مناقشتنا عند جانب واحد يبدو أنه الأكثر إثارة للاهتمام وهو تاريخ الاتصالات السياسية بين روسيا وعرب الخليج. فبقدر ازدياد هذه الاتصالات كانت تنمو المصلحة المشتركة ودرجة التفاهم.

لقد كان البريطانيون قلقين من هذا التطور الذي يهدد احتكارهم في المنطقة؛ لذلك فإن وصف الاتصالات الروسية العربية يبقى ناقصًا دون عرض تفاصيل المحاولات البريطانية لمقاومة النفوذ الروسي المتزايد. إن المواجهة الروسية - البريطانية هي الموضوع الذي يشغل حيزًا كبيرًا في الوثائق التي تعنينا.

كان البريطانيون قلقين من هذا التطور الذي يهدد احتكارهم في المنطقة

على امتداد بضعة قرون كان البرتغاليون في البداية، ومن ثم البريطانيون يشغلون وضعًا مهيمنًا في الخليج. ولكن مع ازدياد دور بلدان الخليج في السياسة العالمية مع مطلع القرن العشرين، وازدياد القدرة البحرية للدول الأوروبية الأخرى، أخذت سفن أخرى تؤم موانئ الخليج؛ ففي صيف سنة ١٨٨٠م مثلاً وصلت بعثة تجارية يابانية إلى بوشهر، وقامت سفينة حربية يابانية بزيارة عدد من موانئ الخليج. وفي شهر نوفمبر من سنة ١٨٨٦م دخلت إلى ميناء بوشهر الفرقاطة

---

(٧) إن كل إشارة إلى ميناء في تقرير قبطان السفينة الروسية يصاحبه وصف كهذا. واستنادًا إلى هذا التقرير، فقد تم وضع "وصف موانئ الخليج الفارسي" المحفوظ في الأرشيف (٤١٧، ١، ٣٩٠٧، ٤-١٣). كما يتضمن أرشيف الأسطول وثيقة بعنوان: "ملاحظات الأرصاد الجوية التي أجريت على متن السفينة" غيلياك "في الخليج الفارسي سنة ١٨٩٩م" من وضع "باخيريف" (٤١٧، ٢٠٣٧، ٣٢٦-٣٣٣).

الأمريكية "بروكلين" التي قام قبطانها بصحبة أحد الضباط برحلة إلى شيراز. وفي شهر أكتوبر من سنة ١٨٨٧م زارت بوشهر سفينة التدريب النمساوية - المجرية "فاسديد" "Fasdid". وفي شهر نوفمبر من السنة نفسها وصلت سفينة خفر السواحل الإيطالية رابيدو "Rapido". ووصلت إلى الخليج أول سفينة حربية ألمانية في شهر أغسطس من سنة ١٨٩٥م، وكانت الطراد من الدرجة الرابعة كورموران "Cormoran"، ولكن ينبغي الإشارة إلى أنه سبق لقبطانين ألمانيين سنة ١٨٨٥م أن جاءا بالسفينة الحربية "بيرسيبوليس" "Persepolis" إلى الخليج من "بريمان"، وقادا السفينة الوحيدة للأسطول الحربي الفارسي مدة من الزمن⁽٨⁾.

لقد كان الدخول العرضي للطراد الروسي المساعد "نيجني نوفغورود" "Nizhny Novogorod" إلى مسقط و"جاسك" من ٢٤ أغسطس إلى ١ سبتمبر ١٨٩٣م بمثابة فاتحة لفصل جديد غير كبير، مع أنه ساطع في العلاقات بين روسيا والخليج. كان الطراد تابعًا إلى ما كان يسمى "الأسطول الطوعي" الذي كان يقوم برحلات تجارية لنقل الحمولات والركاب من الموانئ الروسية إلى الشرق الأقصى. وكان الطراد قد انحرف عن خط سيره بسبب سوء الأحوال الجوية واضطرَّ للالتجاء إلى مرسى ميناء مسقط.

وقد استُقبل الضباط الروس بالحفاوة من جانب سلطان مسقط، وتصادفت هذه الزيارة مع تفاقم الصراع البريطاني - الفرنسي على مسقط. ومع أن هذه الزيارة كانت بالصدفة ولا يمكن ربطها بعمل مقصود، إلا أن الأوساط البريطانية الهندية الرسمية عدَّت هذه الحادثة العرضية بمثابة تظاهرة سياسية ضمن إطار "الوفاق" الفرنسي الروسي⁽٩⁾.

---

(٨) إس. ن. سيرومياتنيكوف. مقالات عن الخليج الفارسي. سانت بطرسبورغ، ١٩٠٧م، ص ص ٢٢-٣٠.

(9) T. Wilson. The Persian Gulf. Oxford: Clarendon Press, 1928, P.238.

غيلياك:

في ربيع سنة ١٨٩٩م ظهر في مياه الخليج فجأة الطراد الألماني "أركونا" "Arkona"، وأثارت زيارة هذا الطراد اضطرابًا لدى ممثلي بريطانيا في الخليج الذين ظنوا في البداية أنه سفينة حربية روسية. ولما علم المبعوث الروسي في طهران "أرغيبو بولو" بذلك قدم توصية قوية بإرسال سفينة حربية روسية إلى الخليج(١٠). وبعد مناقشات مكثفة تم إرسال السفينة الروسية الحربية "غيلياك" إلى الخليج، وقد وافق على القرار القيصر نيكولاي الثاني بنفسه.

إن التعليمات التي تلقاها القبطان قبل الانطلاق في مهمته مفقودة من الأرشيفات، ولكننا نعرف أن هذه التعليمات أصبحت فيما بعد أساسًا للوثائق المماثلة المخصصة لقباطنة السفن الحربية الروسية الأخرى؛ فملفات أرشيفات الدولة للسياسة الخارجية لروسيا تحتوي على رسالة بعث بها وزير الخارجية الروسي "ف. لافردورووف" إلى "ب. تيرتوف" المكلف بوزارة البحرية، وضعت على أساسها التعليمات التي أعطيت إلى قبطان "غيلياك". إن هدف إرسال السفينة الروسية كان: "أن نبين للإنجليز، وللسلطات المحلية على حد سواء، بواسطة عرض العلم الروسي في الخليج، أننا نعدُّ الخليج مفتوحًا لسفن الدول جميعها، وذلك على عكس سعي الحكومة البريطانية لتحويله إلى بحر مغلق يقع في دائرة نفوذها فقط". وعليه ففي حال قيام "غيلياك" بالرحلة المقترحة فإن القضية لا تتعدى إحداث انطباع معين دون أية نوايا عدوانية، أو خطط لإحراز مكاسب إقليمية(١١).

---

(١٠) أرشيف الدولة للسياسة الخارجية. ملف "القسم الفارسي"، رقم ٤٠٦٣، الأوراق ٢-٣. "تقرير "أرغيبو بولو" إلى وزارة الخارجية"، ٤ مايو ١٨٩٩م، رقم ١٨.

(١١) المصدر السابق، الورقة ٢٤، "رسالة من الكونت "لامزدورووف" إلى "تيرتوف"، ٥ نوفمبر ١٨٩٩م، رقم ٦٢٣ .

لقد زارت السفينة الحربية غيلياك الخليج (بندر عباس، بو شهر، المحمرة، البصرة، والكويت) في شهري فبراير - مارس ١٨٩٩م.

كان البريطانيون قلقين بشكل خاص؛ لأن السكان المحليين كان لديهم حرية كاملة بدخول السفينة، وهي سفينة حديثة البناء (١٨٩٦م) على عكس السفن البريطانية القديمة. وسَرَتْ شائعات في البصرة بأن الطراد الإنجليزي بومونيه "Pomone" تعرض لدمار كبير جراء تصادمه مع غيلياك؛ لذلك كان البريطانيون الذين حاولوا المبادرة في بث الشائعات حول خراب غيلياك في حالة من الإحباط.

كما أحدثت انطباعًا شديدًا في نفوس السكان المحليين المصابيح الكاشفة الكهربائية لغيلياك التي لم يكن لها مثيل في السفن البريطانية. ويذكر القنصل البريطاني في البصرة "وراتيسلاو" "Wratislaw" في مذكراته أن مصابيح "غيلياك" أضاءت الشرفة التي كان فيها جميع البريطانيين في البصرة ملتقين في إحدى الأماسي، وواحد من الرجال أعمته الأنوار، فانفجر غاضبًا وشتم السفينة!(١٢).

بعد البصرة توجهت غيلياك بناءً على طلب كروغلوف (القنصل الروسي في البصرة) إلى الكويت، فقد كان الدبلوماسيون الروس يهيئون بكل اهتمام للزيارة. وفي عام ١٨٩٩م وصل إلى الكويت التاجران "رتين أوفانيسوف" و"عباس علييف"، وهما مواطنان روسيان، وكانت لزيارتهما أهداف سياسية وتجارية، ومنها تأمين استقبال لائق للبحارة الروس، وجرى من خلال شخصيات محلية مهمة استطلاع موقف الشيخ مبارك من الزيارة المرتقبة. إلا أن السلطات العثمانية رفضت السماح للسفينة بدخول الكويت. ولم تحصل الموافقة إلا عند أواخر شهر فبراير عندما استطاع السفير القيصري في القسطنطينية "زينوفييف" "Zinovyev" إقناع السلطان

---

(12) C. Wratislaw. Consul in the East. London : Blackwood, 1924, p.169.

عبدالحميد بإصدار تعليماته المناسبة تلغرافيًا إلى الحاكم العام في البصرة محسن باشا.

وأثناء وصول "غيلياك" إلى الكويت تبين أن سفينة البريد البريطانية "سفينكس" وصلت إلى هناك قبلها. وعمل سكرتير القنصلية البريطانية وقبطان "سفينكس" على إقناع الشيخ مبارك بأن لا يقيم احتفالاً خاصًا للترحيب بالسفينة الروسية. ولكن الشيخ مبارك الذي جاء خصيصًا من الصحراء لاستقبال السفينة، كان يوازن بكل مهارة بين بريطانيا وتركيا، ويحاول تأليبهما ضد بعضهما في سعيه للاستقلال، حيث رأى في روسيا حليفًا طبيعيًا في التحالف ضد بريطانيا، ورفض أن يعود إلى الصحراء، ومن ثم دعا الروس إلى مقره، وأعد لهم رحلة صيد بالصقور ورحلة صيد بالكلاب.

اعتذر الروس عن تلبية هذه الدعوة لأنه كان يتوجب على غيلياك المغادرة، ولكن الزيارة أظهرت أن هناك مصالح مشتركة، وشجعت الشيخ مبارك على تأسيس علاقات ودية مع الروس الذين أثبتوا أنهم مفيدون لاحقًا. وبالفعل قرر القنصل الروسي العودة إلى البصرة برًا، فأعطاه الشيخ مبارك قافلة وحماية. إن المناقشات الشاملة التي جرت بين مبارك و"كروغلوف" و"أوفسيينكو" أثناء زيارة "غيلياك" قادته إلى أن يقترح في ربيع سنة ١٩٠١م أن تقوم روسيا برفع علمها فوق الكويت(١٣).

وقد أعطى قبطان "غيلياك" في تقريره وصفًا دقيقًا للوضع السياسي العام في الخليج، حيث كانت بريطانيا تسعى لإزاحة تركيا من قطر والكويت، وإعلان أن مرافئهما مغلقة بوجه السفن الأجنبية. وأكد على إدراك المشايخ العرب أنهم في ظل السيادة التركية المعلنة

---

(١٣) "غ. ل. بونداريفسكي". مصدر سابق، ١٩٦٨م، ص ص ٣٢٣، ٣٤٨ - ٣٥٥، ٣٦٩، ٣٨٩؛ المؤلف نفسه. روسيا والكويت أوائل القرن العشرين، موسكو: دار ناؤوكا، ١٩٦٧م (الدراسة رقم ٢٧، المؤتمر الدولي للمستشرقين).

يعدون أنفسهم مستقلين عمليًا، أما الحماية البريطانية فكانت تعني نهاية كل استقلال. ويحلل القبطان السياسة البريطانية التي تسنى لها في الواقع بواسطة الابتزاز، والرشاوى والتهديدات، والتحكم في السلطات المحلية التركية. يقول "أندرينيوس": إن بريطانيا كانت تضخم الإشكالات السهلة في الخليج، وتحوِّلها إلى حوادث كبرى تمس - على حد زعمها - المصالح البريطانية. ونتيجة لذلك استبدل الوالي التركي. ويختم القبطان تقريره بوصف الاستقبال الحار الذي حظي به البحارة الروس من جانب السكان المحليين، وشعوره أنهم رأوا في الروس حلفاء لهم ضد الإنجليز(١٤).

وإجمالاً، كانت الزيارة الأولى لسفينة حربية روسية خلال إحدى أكثر الفترات توترًا في الوضع السياسي في الخليج قد لقيت نجاحًا كبيرًا للدبلوماسية الروسية. وكانت لها بالمقارنة مع زيارات السفن الروسية اللاحقة، أكبر النتائج السياسية والدبلوماسية. إن حدث دخول سفينة روسية لموانئ الخليج أعطى انطباعًا حسنًا ليس في الجزء العربي من الخليج فحسب، بل في الشطر الفارسي، وفي الهند، وبريطانيا وألمانيا. وهذا واضح جدًا من التغطية الصحفية الشاملة ومن تقارير شهود العيان(١٥).

كورنيلوف:

بعد زيارة السفينة الحربية الروسية وصلت الرحلة الأولى للسفينة التجارية "كورنيلوف" إلى موانئ الخليج. وقبل انطلاقة هذه الرحلة

---

(١٤) يوجد التقرير الموسوم "تقرير قائد سفينة خفر السواحل (غيلياك) المقدم البحري "أي. ب. أندرينيوس" عن زيارة موانئ الخليج" في ملفات أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي (ملف، ٤١٧ قائمة، ١ رقم ٢٠٣٧). هذا وقد نشرت أجزاء من الوثيقة في كتاب "سفن روسية في الخليج (الطبعة العربية، ص ص ٣٥-٥٨؛ الطبعة الإنجليزية، ص ص ٢٦-٤٦).

(15) K. Mehrmann - Koblenz. Der diplomatishe Krieg in Vonderasien. Dresden, Das Grossere Deutschland, 1916, p.42.

أبلغ الدبلوماسي أوفسيينكو الذي كان موجودًا في البصرة منذ شهر فبراير ١٩٠١م أن التجار المحليين يرحبون بإمكان إقامة روابط تجارية وثيقة مع روسيا، وأن الشخصيات المهمة المحلية أبلغته: "أن أكثر ما يخيف الإنجليز هو مؤهلات مواطنيكم وموهبتهم الطبيعية في كسب ودّ السكان الأصليين الذين يقابلونهم. إن الإنجليز يعيشون بيننا منذ عشرات السنين ولكنهم يبقون غرباء. ولكن بحارتكم مع أن إقامتهم كانت قصيرة فإنهم أفلحوا في كسب كل عواطفنا"(١٦).

كان من الطبيعي أن يحاول الإنجليز عرقلة التجارة الروسية التي كانت تهدد احتكارهم للتجارة والنقل. وكانوا يؤكدون للموظفين المحليين أن سفينة "كورنيلوف" ستتقل فريقًا من الضباط الروس، وسيحاولون بالتعاون مع الروس الذين قدموا من فارس عن طريق البر الاستيلاءَ على البصرة. وحاولوا إقناع تجار البصرة بأنهم يخاطرون جدًا بشحن بضائعهم على سفينة روسية كانوا يصفونها بأنها متقدمة. حتى إن القنصل البريطاني في البصرة طلب من تاجر هندي تابع لبريطانيا إلغاء عقد استئجار مبنى للممثل الروسي(١٧).

في الفترة من ٣ فبراير إلى ١١ مايو ١٩٠١م قامت السفينة "كورنيلوف" التابعة للشركة الروسية للملاحة والتجارة بزيارة جدة، ومسقط، وجاسك، وبندر عباس، وبندر لنجة، وبوشهر، والمحمرة، والبصرة(١٨). لقد كانت زيارة هذه السفينة ناجحة سياسيًا، إلا أن

---

(١٦) أرشيف الدولة للسياسة الخارجية، ملف "السفارة في القسطنطينية"، ملف ١٢٤٥، ورقة ١٠٢. "رحلة تجريبية لسفينة الشركة الروسية للملاحة (كورنيلوف) إلى البصرة": تقرير "أوفسيينكو".

(١٧) المصدر السابق، الأوراق ١١٩-١٢٠.

(١٨) يوجد التقرير الموسوم بـ "بلاغ الوكيل التجاري المؤقت للشركة الروسية للملاحة والتجارة "كلاسينغ" بشأن الرحلة الأولى التي قامت بها إلى الخليج الفارسي السفينة "كورنيلوف" من ٣ فبراير إلى ١١ مايو ١٩٠١م " في ملفات أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي (ملف رقم ٤١٧، القائمة ١، رقم ٢٥٤٨). وقد نُشرت أجزاء منه في كتاب "سفن روسية ... (الطبعة العربية، ص ص ٦٠-٧٦ ؛ والطبعة =

نتائجها من الناحية الاقتصادية لم تكن كذلك، والسبب هو بعض الأخطاء المتعلقة باختيار نوع السفينة المبحرة للخليج بنوعية البضاعة التي تحملها؛ حيث كانت السفينة كورنيلوف ذات غاطس عميق مما

= الإنجليزية، ص ص ٤٨-٦١). كذلك توجد الوثائق الإضافية المتعلقة بنشاطات الشركة الروسية للملاحة والتجارة في الخليج في أرشيف الدولة التاريخي في سانت بطرسبورغ ومنها :

"عن تنظيم الرحلات البحرية إلى الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ١٢٧٦، ١٠، ٣٧٣، ٤٨٣، ١٢٧٨، ٦، ١٣٢٢، ٩٥، ١٨، ٣٠٨، في تاريخ ١٩١٥ - ١٩٢٤م، "مراسلات وزارة التجارة والصناعة حول أهمية الخليج الفارسي لروسيا" (المرجع الأرشيفي: ٢٩٣، ٢٩٨، مؤرخة عام ١٩١٢م)، "برقية وزير التجارة الداعمة للرحلات البحرية إلى الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ٤٠، ١، ١/٧٠ تاريخ ١٩١٢م) ؛ "برقية القنصلية العامة الروسية حول الوضع التجاري في ولاية بغداد" (المرجع الأرشيفي: ٢٣، ١١، ٦٩ مؤرخة في ١٩١١م، ٢٣، ١١، ١٤١، مؤرخة في ١٩١٢م)، "مواعيد رحلات سفن الشركة الروسية للملاحة والتجارة من أوديسا إلى موانئ الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي : ٩٥، ٦، ١٢٩، تواريخ السنوات ١٩٠١ - ١٩٠٨، ١٩١١ - ١٩١٤)، "برقيات القناصل الروس حول حركة مبيعات البضائع في موانئ الشرق الأدنى" (المرجع الأرشيفي : ٩٥، ٦، ١٣٤٤، في ١٩١٠م) "، عن الحمولات والمسافرين على رحلات الشركة الروسية للملاحة والتجارة إلى الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي : ٩٥، ٦، ١٣٧٠، سنة ١٩١٠م)، "مراسلات الشركة الروسية للملاحة والتجارة حول محتويات رحلاتها إلى الخليج الفارسي"(المرجع الأرشيفي: ٩٥، ٦، ١٩١٥، في ١٩١١م)، "عن موانئ الخليج الفارسي: تقارير عن رحلات سفن الشركة الروسية للتجارة والملاحة البخارية "تروفر" "تيغري" "إيفريتز" (الأرشيف المرجعي: ٥٦٠، ٢٨، ١٠٩٣، في ١٩٠٧ - ١٩١٧م)، "ملاحظة عن تطور الرحلات البحرية إلى الشرق الأدنى" (المرجع الأرشيفي: ٩٥، ١٨، ٢٩١، سنة ١٩١٢م)، "حول دعم رحلات السفن البخارية إلى الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ٩٥، ١٨، ٢٧٥، في ١٩٠٧ - ١٩١٥م)، "تقرير مرفوع إلى وزير التجارة حول افتتاح خط الخليج" (المرجع الأرشيفي: ٩٥، ١٨، ٢٦٢، في ١٩٠٤م)، "مقتطف من بروتوكول مؤتمر إقامة خط رحلات بالسفن التجارية إلى موانئ الخليج" (المرجع الأرشيفي: ٩٥، ١٨، ٢٦٠، مؤرخ سنة ١٩٠٢م)، "عن الرحلات إلى موانئ الخليج" (المرجع الأرشيفي: ٢٢، ٣، ١٣٢، في السنوات من ١٩٠٦ - ١٩١٣م)، "معلومات عن أثمان الحمولات المنقولة من الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي : ١٠٧، ١، ٢٨٠٨، في سنة ١٩٠٧م)، "تقرير عن نشاطات الشركة الروسية للملاحة والتجارة في بوشهر" (المرجع الأرشيفي: ١٠٧، ١، ٣٢٣٧، في سنة ١٩٠٥م)، "ملاحظة "كوزيتسكي" حول إقامة خط رحلات بحرية من أوديسا إلى موانئ الخليج الفارسي" المرجع الأرشيفي: ٩٥، ١٨، ٤٩٣، في سنة ١٩٠١م)، "الاجتماع العام للمساهمين حول مسألة توقيع اتفاقية مع الحكومة بشأن ضمان خط الخليج الفارسي" =

يعسر معه الملاحة في موانئ الخليج ذات المياه الضحلة. كما أنه كان من الخطأ اختبار السيد هاملتون ليكون وكيلاً مؤقتًا للشركة الروسية للملاحة والتجارة في البصرة، والسماح لشركة "بلاكي وهوتز" بتمثيل الشركة في بغداد. لقد حاولت الشركتان أن تعيقا التجارة الروسية في الخليج.

فارياغ (Varayg) :

هكذا كان الوضع في الخليج عند ظهور أحدث طراد رباعي المداخن هناك؛ طراد "فارياغ" "Varyag" الذي صادف في مرفأ عدن سفينة كورنيلوف العائدة.

لقد مر أكثر من ثمانية عشر شهرًا منذ زيارة "غيلياك" ومع ذلك فإن البريطانيين روجوا شائعات تزعم أنهم منعوا السفن الحربية الروسية من دخول الخليج(١٩).

= (المرجع الأرشيفي: ١٠٧، ١، ١٥٤١، في سنة ١٩٠٢م)، "اتصالات مع موانئ الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ١٠٧، ١، ١٥٤٨، ١٥٤٩، ١٥٧٧، ١٥٨٤، ١٥٩٠، ١٦٠٧، ١٦٦٧، ١٧٦٦، ١٨٦٨، ١٩٢٢، ١٢٦٩، ٢٠١٨، ٢٠٨٧، ٢٠٩١، ٢٢٠٦ مؤرخة في السنوات ١٩٠٢ - ١٩١٤م)، "تقارير الرحلات البحرية للخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ١٠٧، ١، ١٧٢٢، مؤرخة في سنة ١٩٠٥م)، "رحلات بحرية بين موانئ البحر الأسود والخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ١٠٧، ١، ١٤٤٤، ١٠٧، ١، ١٤٨٦، ١٤٩٤، ١١٥٣، ١٧١١، مؤرخة في السنوات ١٩٠٠-١٩٠٣م) "اتفاقية حماية الاتصالات مع موانئ الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ١٠٧، ١، ١٥٢٠؛ ١٥٢٨، في سنة ١٩٠٢م)، "سعة الرحلات البحرية إلى موانئ الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ٥٦٥، ٤، ١٧٠١٨، مؤرخة في السنوات ١٩١٣ - ١٩١٥م، ٢٣، ١٥، ٢٦٦، مؤرخة في السنوات ١٩١٣ - ١٩١٤م)، "بناء سفينتين تجاريتين للخط الفارسي" (المرجع الأرشيفي : ١٠٧، ١، ١٥٢٣، مؤرخة في سنة ١٩٠٢م)، "برقية القنصل العام في بوشهر حول التجارة في الخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ٢٣، ١١، ٨٩، مؤرخة في سنة ١٩١١م). وإنه لمن المثير أن مراسل صحيفة "التايمز" في سانت بطرسبورغ كان يعرف عن بناء سفينتين تجاريتين روسيتين أنها لخط الخليج (التايمز، ٢١ أكتوبر ١٩٠٣م، ٦ نوفمبر ١٩٠٣م) (انظر أيضًا الحاشية ٢٧ الآتية).

(١٩) أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي، المرجع الأرشيفي: ٤١٧، ١، ٢٥٨٤، الورقة ٦٢.

في شهري نوفمبر و ديسمبر ١٩٠١م زارت "فارياغ" مسقط، وبوشهر، والكويت، وبندر لنجة، وبندر عباس(٢٠). لقد وصلت سفينة "فارياغ" في أوج الأزمة الكويتية. وتشير رسالة من وزير الخارجية الروسي الكونت لامزدورف إلى أنه "لم تكن لدى روسيا نوايا عدوانية في المنطقة، ولا تتطلع إلى امتلاك الأراضي"(٢١). فقد كان هدف زيارة "فارياغ" ينحصر في الاستيضاح الفعلي لوضع الأمور في الخليج العربي بعد الاتفاقية البريطانية - التركية بشأن المحافظة على الوضع القائم في الكويت التي أصبحت أهميتها تزداد بوصفها المحطة الأخيرة لخط سكة حديد بغداد. كل هذا كان واضحًا من التعليمات التي وضعتها بصورة مشتركة وزارتا البحرية والخارجية لقبطان "فارياغ". لقد علقت روسيا أهمية كبيرة على هذه الزيارة لدرجة أن البرقية المتعلقة بمغادرة السفينة أرسلها القيصر نيكولاي الثاني شخصيًا(٢٢)، وأن خط سيرها بقي سريًا جدًا، بل حتى ضباط السفينة لم يخبروا بوجهتهم إلى أن غادروا مرفأ عدن، وكان القبطان "ف. آي. بير" ونائبه "واي. ك. كرافت" هما الوحيدين اللذين يعرفان خط سير السفينة.

وقبل وصول "فارياغ" بوقت قصير افتُتحت قنصليتان روسيتان في البصرة وبوشهر، وهو الأمر الذي يؤكد اهتمام روسيا الشديد بالمنطقة(٢٣).

---

(٢٠) يوجد التقرير الموسوم بـ "تقرير العقيد البحري "ف. أي. بير" قبطان الطراد (فارياغ) عن موانئ الخليج الفارسي" في ملفات أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي ٤١٧، ١، ٢٤٣٦). وقد نشرت أجزاء من هذا التقرير في كتاب "سفن روسية" (الطبعة العربية، ص ص ٨١-٩٩؛ والطبعة الإنجليزية، ص ص ٦٥-٨٢).

(٢١) المرجع الأرشيفي في أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي، ٤١٧، ١، ٤٣٦، ورقة ٢٠.

(٢٢) المصدر السابق، الورقة ١٤ .

(٢٣) حول الجهود الأولية لهاتين المثليتين انظر: "ب. إس. شيلكوفنيكوف". قوات ومساحة منطقة الفيلق السادس التركي: تقرير عن بعثة ١٩٠٢ - ١٩٠٣م إلى بلاد ما بين النهرين. تفليس: قيادة منطقة القوقاز العسكرية، ١٩٠٤م، المجلد الأول، الأجزاء ١ - ٣، ص ص ٨٠ - ٨٢. هذا وقد وصل "شيلكوفنيكوف" إلى الخليج على متن الطراد "أسكولد".

لقد كانت الكويت مرة أخرى المحطة الأهم في برنامج زيارة "فارياغ" الخليجية؛ ففي الكويت صعد (جابر ابن الشيخ مبارك) إلى الطراد حاملاً هدايا، وقد ذكر أن الشيخ مبارك وثلاثة آلاف من قواته موجودون في الجهراء على بعد (١٥) ميلاً من الكويت بانتظار هجوم لقوات ابن رشيد. وتوجه أوفسيينكو الممثل الروسي في بوشهر مع الضباط الروس إلى الجهراء، حيث لقوا استقبالاً وديًا للغاية، واستعرضوا القوات ورأوا رقصات وألعابًا عسكرية(٢٤). وقال الشيخ مبارك: إنه سوف يكون مسرورًا جدًا بأن يرى السفن الروسية في المرفأ الكويتي بشكل متكرر، وإنه إذا ما حَلَّت بالكويت مشكلة فسوف يتجه للروس للمساعدة. وقد وجد الضباط الروس أن جنود الشيخ مبارك مدربون جيدًا مع أنه لا يوجد مدربون أجانب في المخيم؛ فقد تعلم الجنود البدو حفر الخنادق، وتلقوا على الطراد البريطاني "بومونيه" تدريبًا على إطلاق المدافع.

اتسمت زيارة "فارياغ" بأهمية سياسية كبيرة، وقد رفض الشيخ مبارك إبلاغ الإنجليز بمضمون مناقشاته مع القبطان "بير" و"أوفسيينكو"، وسرت شائعات في الخليج تقول: إن الشيخ مبارك عزم على إنزال العلم البريطاني، ورفع العلم التركي مكانه(٢٥). وقد ذكر "أوفسيينكو" في تقريره أن "فارياغ" كانت موضع اهتمام شديد في موانئ الخليج المختلفة، وقال: لفتت السفينة انتباه الجميع، وغدت موضع الاهتمام وأحيطت بمظاهر الود من جانب السكان المحليين؛ فالمقاييس المهيبة للسفينة ومظهرها الفخم، والأبهة، والنظافة

---

(٢٤) الصور التي تم تصويرها في الكويت بواسطة ضباط السفينة "فارياغ" قمت بنشرها في كتاب "سفن روسية في الخليج ١٨٩٩ - ١٩٠٣م (الطبعة العربية، ص ص ١٧٧-١٨٤؛ والطبعة الإنجليزية، ضمن النص). كما تم تزويد الطبعة الإنجليزية بصور السفن الموجودة ضمن مجموعة متحف الدولة للأسطول البحري الحربي في سانت بطرسبورغ.

(٢٥) المرجع الأرشيفي: ٤١٧، ١، ٢٥٤٨، الورقة ٦٢.

والترتيب في الداخل، والإضاءة الكهربائية القوية، ومدافعها الضخمة، و"أوركسترا" الآلات النحاسية التي لم يسبق مشاهدتها في الخليج، ومختلف الآلات التقنية الحديثة، وقوة الطاقم، والسماح بالوصول إلى السفينة ومشاهدتها بناءً على نصيحتي، وأخيرًا بشاشة البحارة الروس ولطافتهم، كل هذا أثار الدهشة والإعجاب لدى الزائرين. وقد فتحت نقاشات غير منتهية في موانئ الخليج المختلفة حتى بعد مغادرتها، وكان هناك حديث كثير حول الطراد الروسي ليس في موانئ الخليج فحسب بل في سواحل الجزيرة العربية أيضًا، ووصلت الشائعات عن وصول الطراد الروسي إلى شيراز وأصفهان"(٢٦).

أسكولد (Askold) :

لقد كان الوضع السياسي يتطلب بشكل جلي وجود سفينة روسية في الخليج. ولذلك نوقشت وأقرت(٢٧) مسألة بناء سفينة حربية خاصة للوجود الدائم في الخليج. وفي نوفمبر – ديسمبر ١٩٠٢م أرسلت إلى الخليج سفينة أخرى من الدرجة الممتازة هي الطراد ذو المداخن الخمس "أسكولد" الذي كان طاقمه يتألف من (٥٨٠) شخصًا. وقد زار هذا الطراد مسقط، وبوشهر، والكويت، وبندر عباس(٢٨).

ومن بين نتائج هذه الزيارة المباحثات المهمة التي عُقدت مرة أخرى بين الشيخ مبارك والقنصل الروسي في البصرة. "أ. آداموف" الذي

---

(٢٦) أرشيف الدولة للسياسة الخارجية، "الأرشيف السياسي"، ٣٦٥، الأوراق ١٥-١٦. "تقرير من أوفيسينكو إلى طهران"، ١١ يناير، ١٩٠٢م، رقم ٩.

(٢٧) المصدر السابق، الأوراق ١-٧، ٢٠-٢٥.

(٢٨) يوجد التقرير الموسوم بـ "تقرير قائد الطراد الدرجة الأولى "أسكولد" القبطان "ن. رايتسنشتاين" حول زيارته إلى موانئ الجزيرة العربية" في ملفات أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي (٤١٧، ١، ٢٥٤٨). هذا وقد نُشر مقتطف من هذا التقرير في كتاب "سفن روسية ..." (الطبعة العربية، ص ص ١١٧ – ١٤٢؛ والطبعة الإنجليزية، ص ص١٠٠ – ١٢٣).

جاء على متن "أسكولد" إلى الكويت(٢٩). ويحتوي تقرير "رايتسنشتاين" قبطان (أسكولد) على عرض مفصل للوضع السياسي حول الكويت، وعلى وصف ميناء الكويت والورش الكثيرة لتصليح السفن، والأسطول الكويتي المؤلف من (١٠٠٠) سفينة ويخت الشيخ أبيض اللون شبيه بسفينة شراعية متعددة الصواري من القرون الوسطى. وصعد إلى السفينة الشيخ جابر ونجله أحمد وشيخ صغير حيث جرى حديث ودّي بينهما(٣٠).

أحدث الطراد الروسي انطباعًا شديدًا في الخليج، وزاره مئات الأشخاص الذين قدروا ضيافة الضباط الروس وبساطتهم، وهم الذين يختلفون كثيرًا عن البريطانيين الذين يكونون في العادة متعالين.

وقد حاول البريطانيون تخفيف أثر الانطباع الحسن الذي تركته السفينة الروسية، وذلك بإرسال سفينة حربية جديدة رينون "Renown" إلى الخليج في أواخر سنة ١٩٠٣م، ولكنها فشلت في تحقيق الهدف؛ فالسفينة العملاقة كانت تبقى في الموانئ لمدة ثلاث ساعات أو أربع، وتصعب رؤيتها من الساحل(٣١).

بويارين (Boyarin) :

تتسم الوثائق المتعلقة بالزيارة المشتركة التي قام بها إلى الخليج الطراد الروسي "بويارين"، والطراد الفرنسي إنفيرنيت "Infernet" في فبراير - مارس ١٩٠٣م(٣٢) بأهمية كبيرة.

---

(٢٩) أرشيف الدولة للسياسة الخارجية، "السفارة في القسطنطينية"، ١٢٦٦، الأوراق ٣ - ١٦، "تقرير من "آداموف" إلى وزارة الخارجية"، في ٨ يناير ١٩٠٣م، رقم ١٩.

(٣٠) المرجع الأرشيفي في أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي: ٤١٧، ١، ٢٥٤٨، ٧٨ - ٥٢.

(٣١) المصدر السابق، ١٠٨.

(٣٢) يوجد هذا التقرير المعنون بـ "تقرير قائد الطراد الخفيف (بويارين) المقدم البحري "ف. ف. ساريتشيف" (حول زيارة الطراد إلى موانئ الخليج الفارسي)" =

لقد زار الطرّادان مسقط، وبوشهر، والكويت، وبندر لنجة، وبندر عباس، ومسقط مرة أخرى، لقد سبق للدولتين الحليفتين (روسيا وفرنسا) أن ناقشتا المشروع في مطلع سنة ١٩٠٢م(٣٣)، ولم يكن من السهل تحقيق ذلك؛ لأنه لم يكن يوجد أسطول روسي ولا أسطول فرنسي في منطقة الخليج، ولم تتكلل بالنجاح في عام: (١٩٠١-١٩٠٢م) محاولات استخدام السفن المتجهة من بحر البلطيق إلى الشرق الأقصى.

لقد كانت السفن الروسية والفرنسية تمر على مقربة من الخليج في أوقات مختلفة، ولم يتسن تحقيق الخُطة إلا في مطلع سنة ١٩٠٣م. لقد أراد الحليفان إثبات وحدة حلفهم الثنائي وقوته لعدوهم الرئيس في المنطقة وهو بريطانيا، وكذلك أمام إيران وتركيا والمشايخ العرب في المناطق الساحلية. غير أن الحليفين كانت لهما أسبابهما الخاصة من وراء هذه التظاهرة؛ فبالنسبة لروسيا القيصرية كان الخليج مهمًا في سياق سياستها التركية والفارسية والاختلافات البريطانية الروسية بهذا الشأن. أما فرنسا فنظرت إلى هذه الزيارة بالدرجة الأساسية في سياق النزاع البريطاني - الفرنسي على مسقط الذي ثار مجددًا. كما أن مسألة الكويت أدت أيضًا دورًا

> **بالنسبة لروسيا القيصرية كان الخليج مهمًا في سياق سياستها التركية والفارسية والاختلافات البريطانية الروسية**

= في ملفات أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي (٤١٧، ١، ١٦١٣). هذا وقد نشر مقتطف من هذا التقرير في كتاب: سفن روسية في الخليج ... (الطبعة العربية، ص ص ١٤٥ - ١٧٤؛ والطبعة الإنجليزية، ص ص ١٢٦ - ١٥٣). لقد قادت نتائج زيارة الطراد بويارين إلى الكويت إلى التفكير في إقامة قنصلية روسية في الكويت (حول هذه الفكرة انظر : أرشيف الدولة للسياسة الخارجية، قسم "ديوان الوزير"، ٢٦، ١، الأوراق ٧٥ - ٧٧). وتوجد وثيقة أخرى من الأرشيف نفسه تعطي مثلاً على تطور العلاقات وهي: "حول السماح للسيد بتملك سفن شراعية في الكويت وتحمل العلم الروسي" (٩٥، ٤، ١٤٠٠/١٥٢٦، مؤرخة في سنة ١٩٠٤م) .

(٣٣) المرجع الأرشيفي: ٤١٧، ١، ٢٦١٣، ورقة ٤٢؛ ٤١٧، ١، ٢٦٧٩، الأوراق ١، ٣١.

رئيسًا في تفكير الحليفين، غير أن مواقفهما كانت مختلفة في هذه المسألة أيضًا؛ فقد وظفت فرنسا رأس مال كبير في المشروع الألماني لخط سكة حديد بغداد الذي يحتاج أن يصل إلى الكويت ليكون مربحًا، وهذا لن يكون ممكنًا إلا إذا بقيت الكويت تابعة لتركيا؛ ولهذا السبب اصطدمت فرنسا ببريطانيا التي كانت تسعى لفرض حمايتها على الكويت.

لقد عارضت روسيا المشروع كله، وأرادت أن يبقى الشيخ مبارك مستقلاً. كان الشيخ مبارك يعتقد أن خط سكة حديد بغداد سيؤدي حتمًا إلى استبعاد الكويت. وهنا كانت السياسة الروسية تصطدم مع سياسة ألمانيا وفرنسا وبريطانيا. وترى بريطانيا - كما سيتضح لاحقًا - الموافقة على المشروع إذا أشرفت على القطاع الجنوبي منه المطل على الخليج. علاوة على ذلك كان الفرنسيون يتخوفون من توسع النفوذ الروسي في الخليج. وهذا توضحه وثائق تحتوي على رفض فرنسا المتكرر منح السفن الروسية إمكان استخدام مستودع الفحم الفرنسي في مسقط(٣٤).

لقد سبق لقبطان "بويارين" ساريتشيف زيارة الخليج على متن السفينة الحربية غيلياك، وكان قادرًا على معرفة مدى تغير الوضع بين الأعوام ١٨٩٩-١٩٠٣م. وعندما وصلت السفينة الروسية إلى الكويت في ٥ مارس جرى استقبالها بحفاوة. وصعد إلى متنها الابن الثاني للشيخ مبارك، وهو صباح، وابن أخيه أحمد بن جابر. وعلى الشاطئ رحب الشيخ مبارك الذي كان بزيه الرسمي بالضباط الروس، وتقابل معهم مرتين أثناء الزيارة، ثم قام بزيارة مجاملة.

كما قام الضباط الروس أيضًا بزيارتين إلى عبدالعزيز بن سعود

---

(٣٤) المرجع الأرشيفي: ٤١٧، ١، ٢٦١٣، الأوراق ٣٣، ٤١-٤٣، ٥٤-٥٨، ٨١.

الذي وصل مؤخرًا من الرياض. لقد استقبلوا استقبالاً حسنًا، وقام محمد وسعد أخوا عبدالعزيز بن سعود برد الزيارة إلى السفينة. ويحتوي تقرير القبطان على وصف مفصل للاحتفالات التي نظمت في الكويت قبل وصول "بويارين" و"إنفيرنيت" بوقت قصير، بمناسبة انتصار عبدالعزيز على ابن رشيد قريبًا من الرياض. وفي الأحاديث التي جرت بين الضباط والسعوديين كان السعوديون يشتكون من المساعدة السرية التي يقدمها الأتراك إلى أنصار ابن رشيد. وأكد عبدالعزيز على أنه ما دامت الجزيرة العربية في أيدي مشايخ أقوياء، فلا يمكن أن يتم الحديث عن أي خط سكة حديد حتى الكويت أو حتى ميناء الجهراء الذي لا يقل عن الأول في أهميته. كما أن الشيخ مبارك شدّد على موقفه الرافض لمشروع خط سكة حديد بغداد. وعندما سئل الشيخ مبارك عن رأيه بالخطط البريطانية لبناء طريق من بور سعيد إلى الكويت أجاب بدبلوماسية أنه سيدعمها إذا ما كانت مشروعًا مشتركًا بين روسيا، وبريطانيا، وفرنسا، ولكن هذا كان شرطًا مستحيلاً.

وقد فسر القبطان "ساريتشيف" في تقريره السبب وراء دعم الشيخ مبارك لابن سعود بأنه لو هزم الأتراك السعوديين فإنهم بمساعدة ابن رشيد سيتحركون إلى الكويت. ويتضمن تقرير القبطان "ساريتشيف" النتائج الدراماتيكية لهزيمة الشيخ مبارك في موقعة الصريف؛ فقد وصل ابن رشيد حتى الجهراء وسلب بيت الشيخ مبارك، وأقام خيمته في فناء داره، وشرب فيها القهوة. واضطر الشيخ مبارك الذي كان قد أصيب بجروح للانسحاب من ساحة المعركة. لقد عاد إلى الكويت متوقعًا أسوأ الأمور، ولكن تبين أن نفوذه ما زال قويًا حتى إن هذا الوضع زاد من سلطته. وجاءه وفد من الوجهاء الذين أبلغوه بأنهم سيقفون معه إذا ما بقي حاكمًا عليهم واستمر في الحرب. وفي يوم مغادرة الطرادين غادر عبدالعزيز

بحملة بعد أن تلقى تعزيزات بـ (١٤٠٠) محارب ومؤونة من الشيخ مبارك(٣٥).

ويتضمن تقرير القبطان "ساريتشيف" وصفًا جميلاً للكويت وضواحيها، ووصفًا مفصلاً للخندق الدفاعي نصف الدائري المحيط بالمدينة.

كما أن الزيارتين إلى مسقط كانتا ذات أهمية قصوى أيضًا، فالمفاوضات مع السلطان فيصل بن تركي (سلطان مسقط) أظهرت بقوةٍ تناميَ النفوذ الروسي في الخليج، وقد اقترح شقيق السلطان على الضباط الروس إقناع فيصل بإنشاء مستودع روسي للفحم في مسقط.

أراد نائب القنصل الفرنسي أن يحضر المقابلة التي تمت بين السلطان والقبطان "ساريتشيف"، وأصيب بخيبة أمل شديدة عندما لم يتمكن من ترتيب ذلك. وتُظهر تصرفاته أن الفرنسيين - شأنهم شأن البريطانيين - يتخوفون من ازدياد النفوذ الروسي في الخليج. إن اسم "بويارين" تم نقشه على صخرة عند مدخل مرفأ مسقط بجانب أسماء سفن أخرى زارت مسقط، وهذا النقش الذي يمكن رؤيته حتى الآن يذكرنا بهذه الصفحة المثيرة والمهمة في العلاقات الروسية - الخليجية.

لقد استنتج القبطان "ساريتشيف" في تقريره أن نفوذ روسيا ازداد كثيرًا منذ زيارة السفينة "غيلياك" إلى المنطقة، وذكر أن السكان المحليين اتجهوا إلى القنصل الروسي في بوشهر أوفسيينكو للنظر في الشكاوى والخلافات التجارية.

إن هذه الوثائق في أرشيف الدولة المركزي للأسطول البحري

---

(٣٥) انظر: "ألكسي م. فاسيلييف". تاريخ العربية السعودية، موسكو: ناؤوكا، ١٩٨٢م، ص ٢٣٦ (باللغة الروسية).

الحربي تتضمن مواد وثائقية مثيرة وفريدة عن هذه الفترة القصيرة في العلاقات الروسية - العربية. إن السياسة الروسية في ذلك الوقت كانت في مصلحة سكان الخليج الذين كانوا يصرون على الاستقلال، وكان الاتصال بالضباط الروس سهلاً. إن ذلك كله ساعد روسيا على تنمية نفوذها في المنطقة.

لقد عول الحكام العرب للمناطق الساحلية على بريطانيا في مساعدتهم على إنهاء تبعيتهم لتركيا أو فارس، ولكنهم سرعان ما اقتنعوا بأن المساعدة البريطانية ستقود إلى تبعية مماثلة. إن ظهور سفن روسية، وتنشيط السياسة الروسية في منطقة الخليج، وفتح بعثات قنصلية، وحساسية بريطانيا الواضحة، أظهر للعرب أنه يمكن لروسيا أن تكون حليفًا في سعيهم للحد من الاختراق الإنجليزي والعثماني للمنطقة. لقد بدأ العرب يوجهون أنظارهم إلى الشمال باتجاه روسيا والاستفادة من اتصالاتهم معها في صراعهم الدبلوماسي ضد لندن(٣٦).

تقارير استخبارية:

عندما رفضت روسيا خطة "سالزبوري" التي تقضي بتقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى مناطق نفوذ في خريف ١٨٩٨م، شنت الصحف البريطانية ولا سيما البريطانية - الهندية حملة إعلامية كبيرة مناهضة لروسيا، وحيث وجه الاتهام إلى الحكومة الروسية بأنها تستعد لاحتلال سلطنة "تاجورز" لإرسال عملاء إلى الجزيرة العربية ومنطقة الخليج. فبماذا تخبرنا الأرشيفات الروسية عن النشاطات الاستخبارية الروسية في الخليج في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟

---

(٣٦) يتضمن أرشيف الأسطول البحري الحربي عددًا من الوثائق المتأخرة التي أعطتها وزارة الخارجية لوزارة البحرية. تمس هذه الوثائق الوضع في منطقة الخليج ومشروع خط سكة حديد بغداد (٤١٨، ١، ٣٩٠٧؛ ٣٩٠٨).

إن ثلاث مصالح روسية في الجزيرة العربية والخليج أوجدت ضرورة إرسال ثلاثة عملاء على الأقل يتبعون مؤسسات حكومية ومجموعات مصالح مختلفة في الدولة الروسية.

دولتشاين:

إن النصف الثاني من القرن التاسع هو الفترة التي شهدت زيادة النفوذ الروسي في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. وكانت سنة ١٨٩٨م هي السنة التي انضمت فيها تركستان رسميًا لروسيا. وبلغ عدد المسلمين المواطنين في روسيا (١٦) مليون نسمة، بمن فيهم المسلمون في خيوى وبخارى المعتمدتين على روسيا. وقد حققت بعضُ الخطوات السياسية والاقتصادية التي قامت بها الحكومة المركزية ولاء السكان المحليين لبعض الوقت، إلا أن سلسلة من أعمال الشغب (١٨٧٢م - كارا - سو، ١٨٩٢م - طشقند - أنديجان) القائمة على شعارات دينية أوضحت للسلطات ضرورة تحليل الوضع الديني تحليلاً مناسبًا؛ فقد كشف التحقيق عن الدور المهم الذي قام به المحرضون العثمانيون الذين نقلوا إلى آسيا الوسطى والأورال، بل حتى إلى منطقة الفولغا والقرم أفكارَ الحركة الإسلامية الداعية للوحدة الإسلامية، وأفكار الحركة القومية التركية الداعية إلى وحدة الشعوب التركية[٣٧]؛ فالتحالف التركي الألماني ومحاولات ألمانيا للعب "الورقة الإسلامية" ضد روسيا وبريطانيا جعلت خطر دعاية الحركة الإسلامية والحركة التركية ذا أهمية كبرى. وافتُرض أن المصدر

---

[٣٧] انظر على سبيل المثال الملفات الموجودة في أرشيف الدولة التاريخي في "سانت بطرسبورغ" الآتية: "حول تغيير إدارة الشؤون الدينية للمسلمين في روسيا بهدف مواجهة الحركة الإسلامية" (المرجع الأرشيفي: ٨٢١، ٨، ٦١١، مؤرخة في السنوات ١٨٧٠ - ١٨٧٥م)، و"عن دعاية الحركة الإسلامية والحركة القومية التركية في روسيا" (المرجع الأرشيفي: ٨٢١، ١٣، ٤٦٩-٤٧٧، مؤرخة في السنوات ١٩١٠ - ١٩١٧م)؛ و"عن حركة الوحدة الإسلامية" (المرجع الأرشيفي: ٥٦٠، ١٣٣، ١٨٢، مؤرخة في السنوات ١٩٠٠ - ١٩١٢م)، "وعن دعاية الحركة الإسلامية التركية =

الرئيس لانتشار الدعاية المناهضة لروسيا كان الحج (حوالي ١٠٠٠٠ مواطن روسي يزورون مكة سنويًا)؛ لذلك اتخذ في سنة ١٨٩٨م قرار بإرسال ضابط استخبارات روسي مسلم الأصل. واختير ضابط الأركان العامة الروسية عبدالعزيز "دولتشاين" لهذه المهمة.

عند عودته إلى روسيا أعد "دولتشاين" تقريرًا خاصًا عن مهمته، وأصدرت القيادة العامة عددًا محدودًا من نسخ هذا التقرير سنة ١٨٩٩م مختومة بكلمة "سرّي"(٣٨).

= بين المسلمين الروس" (المرجع الأرشيفي: ٨٢١، ١٣٣، ١١، مؤرخة في السنوات ١٩٠٠ - ١٩١٢م)؛ و"تنظيم الإشراف على المسلمين في آسيا الوسطى لمواجهة دعاية الوحدة الإسلامية" (المرجع الأرشيفي: ١٠١٦، ١، ٧٥٣، مؤرخة في سنة ١٩٠٩م)؛ "حول تطور دعاية الوحدة الإسلامية في مقاطعة قازان" (المرجع الأرشيفي: ٧٣٣، ٢٠١، ١٣٨، مؤرخة في سنة ١٩٠٩م)، و"برقية رئيس مجلس الجندرمة في أوفا عن تطور حركة الوحدة الإسلامية" (المرجع الأرشيفي: ٧٣٣، ٢٠١، ٣٩٩، مؤرخة في السنوات ١٩٠٩ - ١٩١٠م)؛ و"مواد عن دعاية الوحدة الإسلامية في بخارى ومقاطعة سيميرتش" (المرجع الأرشيفي : ٨٢١، ١٣٣، ٤٦٩-٤٧٢، مؤرخة في السنوات ١٩١٠ - ١٩١٧م)؛ و"إجراءات ضد نفوذ حركة الوحدة الإسلامية بين المسلمين الروس، وبدء فصول دراسية في الدراسات الإسلامية وتأسيس مجلة علمية لدراسة الإسلام" (المرجع الأرشيفي: ١٢٧٦، ٧، مؤرخة في السنوات ١٩١١ - ١٩١٣م)؛ و"النضال ضد حركة الوحدة الإسلامية في مقاطعة قازان، حوض قاما، وتركستان" (المرجع الأرشيفي: ١٢٧٦، ٤، ٨١٥-٨١٧، مؤرخة في السنوات ١٩٠٨ - ١٩١١م)، و"عن نزعة تعزيز الدول الإسلامية" (المرجع الأرشيفي: ١٢٧٦، ١٧، ٢٢٤، مؤرخة في سنة ١٩١٢م)، و"ورقة حاكم قازان عن الحركة باتجاه تعزيز جميع الدول الإسلامية" (المرجع الأرشيفي : ١٢٨٤، ١٩٤، ٧٣)؛ و"عرض المدعي العام لسجن مقاطعة "سارابول" عن قضية حركة الوحدة الإسلامية في مقاطعة فياتكا" (المرجع الأرشيفي: ١٤٠٥ : ٥٣٠، ٨١٥، مؤرخة في سنة ١٩١٢م).

(٣٨) لقد تم نشر "تقرير النقيب في قيادة الأركان "دولتشاين" عن مهمته إلى الحجاز" (سانت بطرسبورغ، ١٨٩٩م) في كتاب "الحج قبل مئة سنة" ص ص ١٠٥ - ٢٠٩. كما ضم هذا الكتاب أيضًا يوميات "دولتشاين" (ص ص ٤٥ - ١٠٤) وهي محفوظة في فرع معهد الاستشراق في سانت بطرسبورغ التابع لأكاديمية العلوم الروسية (المرجع الأرشيفي: ٧٠، ١) وكذلك توجد في المعهد سلسلة من المذكرات والوثائق الرسمية ذات العلاقة بموضوع الحج (انظر الحواشي ٤٩ - ٥٤ الآتية) .

إن تقرير "دولتشاين" يوضح أن خطر الحج في بث أفكار الحركة الإسلامية والحركة التركية كان مبالغًا فيه(٣٩). وفي مرحلة لاحقة قام "دولتشاين" بدور فاعل في إصدار قانون متسامح تجاه فريضة الحج(٤٠).

إن تقرير "دولتشاين" مصدر مقيّد يغطي جميع موضوع الحج، ويومياته، وتنظيمه في مختلف مناطق الإمبراطورية الروسية، وممارسات الحج في الجزيرة العربية؛ الوضع الصحي، ومشكلة الأمن ... إلخ.

سيرومياتنيكوف:

لقد كان الدوق الكبير الإكسندر "ميخايلوفيتش" أخو زوجة القيصر "نيكولاي" الثاني، ومجموعة من صنائعه في مؤسسات الدولة المهمة: العسكرية، والبحرية، مثل "بيزوبرازوف"، والأدميرال "أبازا"، المحركين الحقيقيين للسياسة الروسية العدوانية ليس فقط في الشرق الأقصى، بل في منطقة الخليج أيضًا؛ فالأعمال المضادة التي كانت تقوم بها بريطانيا وأمريكا واليابان ضد التغلغل الروسي في الشرق الأقصى جعلت مستقبل ميناء أتربورث القاعدة البحرية الروسية في الصين مشكوكًا فيه جدًا. كما أن التحالف بين تركيا العثمانية وألمانيا نقل الخطر قريبًا من مضائق البحر الأسود. في مثل هذا الوضع تراءى للدوق "ميخايلوفيتش" أن مشروع بناء خط حديدي يمتد من الحدود الروسية إلى أحد موانئ الخليج عبر فارس التي كانت المواقع الروسية فيها قوية جدًا، هو التحقيق المنطقي للنشاط الروسي

---

(٣٩) للبحث في مشكلة دعاية حركة الوحدة التركية والوحدة الإسلامية تبع "دولتشاين" عدد آخر من العملاء السريين، وفتح أرشيفات الاتحاد السوفيتي السابق خلال الثلاث - والأربع سنوات الماضية في فتح المجال للمختصين للاطلاع على جزء كبير من وثائق جديدة حول المشكلة (انظر الحواشي ٥٥ - ٥٩ الآتية).

(٤٠) انظر: زيرفان. الحج قبل مئة سنة، ص ص ٣١٧ - ٣٥١.

المستمر طوال قرن كامل، للحصول على "ميناء في المياه الدافئة"(٤١)؛ ففي رسائله إلى "نيكولاي" الثاني حاول الدوق الكبير قدر استطاعته إقناع القيصر بالتدخل في سياسات الخليج، وكان أبرز المعارضين للإكسندر "ميخايلوفيتش": وزير المالية "فيتيه"، ووزير الخارجية "لامزدورف"، ووزير الشؤون العسكرية "كوروباتكين"، غير قادرين في ذلك الوقت على تحييد نفوذه في القصر.

وفي شهر أبريل ١٩٠٠م قدم وزير المالية "س. واي. فيتيه" مذكرة متواضعة جدًا تتعلق بضرورة إقامة ملاحة تجارية مباشرة بين موانئ روسيا في البحر الأسود وموانئ الخليج الفارسي. ومن أجل دراسة موانئ الخليج والأسواق المجاورة له أُرسلت إلى هناك "بعثة سرية" تتألف من "إس. ن. سيرومياتينكوف" بصحبة "بيلينبرغ" نقيب فوج الخيالة في كتيبة الحرس منطقة "بافلوفسك"، و"بيكير غامازوف". لقد كان الإكسندر "ميخايلوفيتش" في الواقع هو المبادر بهذه البعثة السرية "لسيرومياتيكوف". كان "سيروماتيكوف" الذي يرد ذكره في وثائق الأرشيف على أنه صاحب مشروع قصر خزعل شيخ المحمرة، ذا شخصية رائعة - وكان مرشحًا في الحقوق في جامعة بطرسبورغ، وكان كاتبًا، وصحفيًا مشهورًا باسمين مستعارين "سيغما" و"نورمانسكي"، وكان رئيسًا للتحرير في صحيفة الحكومة الروسية "روسيا Rossiya" كما كان ذا طبيعة مغامرة، ويعرف بلادًا كثيرة

---

(٤١) للتفاصيل حول الخطط الروسية لبناء مثل هذا الخط الحديدي انظر الملفات الآتية في أرشيف الدولة التاريخي في "سانت بطرسبورغ": "رسالة إلى وزير النقل، مؤرخة في سنة ١٨٧٤م حول ربحية بناء خط حديدي بين سمرقند والخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي: ٢٦٢، ١، ١٠١٥)؛ و"رسالة من مجهول حول ضرورة إنشاء نقابة روسية للحصول على امتياز إنشاء خط حديدي بين بحر قزوين والخليج الفارسي" (المرجع الأرشيفي : ٩٣٢، ٣٦٠، ١٩٠٢، ١/١، ٣٢٥ ٣٢١، ٣٢٤، جميعها مؤرخة بعد سنة ١٨٨٠م)، و"مشروع امتياز صادر إلى أي. "أ. خومياكوف" و ب. ل. كورف لإنشاء واستغلال الخط الحديدي بين جنوب بحر قزوين إلى الحدود الجنوبية لفارس" (المرجع الأرشيفي: ٢١٩، ٦/١، ٥٩١٨، الأوراق ١٧٨ - ١٩٥، مؤرخة في السنوات ١٨٨٩ - ١٨٩١م).

وممولين كثيرين، وقام غير مرة بمهمات سرية في كوريا، مثلاً، واشترك اشتراكًا فاعلاً في إنشاء الشركة الصناعية لشرق آسيا. ومقابل ذلك منحه الإمبراطور ميدالية القديسة آنا "Anna" من الدرجة الثالثة، وهدية ملكية(٤٢). وبوصفه تابعًا لمجموعات استعمارية مغامرة وصريحة؛ فقد أثار سلوكه في موانئ الخليج استياء الدبلوماسيين الروس. وفي شهر نوفمبر ١٩٠٠م عاد إلى روسيا واستقبله الأمير الكبير "ألكسندر ميخايلوفيتش" ووزير المالية "اس. واي. فيتيه. وبناءً على تقريره تم اتخاذ قرار بأن تقيم الشركة الروسية للملاحة والتجارة خطًا تجاريًا بين "أوديسا" وموانئ الخليج تضمنه إعانة حكومية ضخمة.

لقد طُلب من "سبيروميا‌تنيكوف" أن يكتب "دليل الخليج الفارسي العملي" حتى إنه رُفع له مقدمًا، وعمل على الكتاب في "سانت بطرسبورغ"، وسافر إلى لندن ولكن لأسباب مختلفة، منها الحرب الروسية - اليابانية لم ينشر إلا فصلان من الكتاب: "الخليج الفارسي وتاريخ العالم"، و "أبعاد الخليج الفارسي". وهذان الفصلان تم نشرهما في كتيب سنة ١٩٠٧م في "سانت بطرسبورغ" بعنوان "مقالات الخليج الفارسي". إن هذين الفصلين يدلان على أن سبيروميا‌تنيكوف كان ينوي أن يكتب ورقة مفصلة يرجع فيها إلى الآشوريين القدماء، ليظهر أهمية الخليج للتجارة العالمية، وحاجة

---

(٤٢) انظر في أرشيف الدولة التاريخي في سانت بطرسبورغ الملفات الآتية: "معلومات عن المشاركين في البعثة السرية إلى موانئ الخليج" (المرجع الأرشيفي: ٢٢، ٢، ٢٣٢٠)، وفي مواد أرشيف الدولة المركزي للأسطول البحري الحربي توجد قصاصة من "أخبار جمعية المشجعين للمعارف العسكرية"، رقم ٤٨، في ١٥ يناير ١٩٠٨م، سانت بطرسبورغ، ص ٢٩٣، تحتوي على عرض لأهم النقاط التي تناولها عضو الجمعية "سيروميا‌تنيكوف" في تقريره الموسوم "الأهمية الدولية للخليج الفارسي والكويت" وألقاه في الجمعية في ٢٣ نوفمبر ١٩٠٧م. ويوجد أرشيف "سيروميا‌تنيكوف" في "بوشكينسكي" دوم "(معهد الآداب، أكاديمية العلوم الروسية) قسم ٦٥٥ (١١٣مادة محفوظة) وفي أرشيف الدولة التاريخي في سانت بطرسبورغ، قسم ١٧٥٧ (٩ وثائق).

روسيا لبناء وجود لها في المنطقة(٤٣). إن الأسباب الإستراتيجية والسياسية هي التي جذبت المجموعات الاستعمارية العدوانية الروسية للخليج في بادئ الأمر، وليست الأسباب الاقتصادية هي السبب، ولكن تحقيق روسيا للاحتكار الفعلي لشمال فارس، وتحركها الناجح إلى الجنوب، وفترات النمو الاقتصادي غير المسبوق فيها كشفت الأهمية الكبرى للخليج، وتحقيقها للمصالح الاقتصادية الروسية أيضًا(٤٤).

شيلكوفنيكوف:

إن المجموعة الثالثة من المصالح الروسية في الخليج هي المصالح العسكرية البحتة؛ فمسألة إنشاء خط سكة حديد بغداد جعل من ولايات بغداد والبصرة والموصل منطقة الفيلق السادس التركي المؤخرة الأقرب من القوات العثمانية المتمركزة عبر الحدود الروسية؛ لذلك قررت قيادات منطقة "عبر القوقاز العسكرية" إرسال عميلها العسكري إلى المنطقة. لقد كان نقيب المدفعية "بوريس شيلكوفنيكوف" أحد أفضل المرشحين لمثل هذه المهمة؛ لأنه كان عضو شرف في معهد الآثار، وعضوًا كامل العضوية في الجمعية الجغرافية الملكية. لهذا قدمت مهمته على أساس أنها مهمة علمية.

ففي شهر سبتمبر ١٩٠٢م أودع في السفارة الروسية في القسطنطينية أوراقه العسكرية، وفي ميناء بورسعيد ركب هو وزوجته

---

(٤٣) مقتطفات من كتاب "مقالات عن الخليج الفارسي" الذي كتبه "اس. ن. سيرومياتنيكوف" (سانت بطرسبورغ، ١٩٠٧م) نُشرت في كتاب: "سفن روسية". الطبعة الإنجليزية، ص ص ١٥٤ – ١٥٩).

(٤٤) "سيرومياتيكوف"، المصدر السابق، ١٩٠٧م، ص ٢٤. وقد أثارت مقالة "سيرومياتيكوف" المنشورة باللغة الإنجليزية في دورية National Review ضجة كبيرة عند نهاية الشهر السادس من عام ١٩٠٣م وتسببت في ردّ حاد في صحيفة "Times of India". انظر: م. إس. إيفانوف. الثورة الإيرانية ١٩٠٥ –١٩١١م، موسكو، ١٩٥٧م، ص ص ١٦ – ١٧. باللغة الروسية .

الطراد "أسكولد". وبما أن الطراد "أسكولد" كان في مهمة سرية، ولأن "شيلكوفينيكوف" لا يحمل أوراقًا عسكرية، فإن القبطان "زيرينستين" أخبره بأنه لا يستطيع أن يأخذه إلا إلى عدن. ولكن بعد أن وصل إذن سماح له من "سانت بطرسبورغ" أخذه القبطان معه إلى الخليج(٤٥).

حتى شهر مايو ١٩٠٣م قام "شيلكوفنيكوف" بزيارة بوشهر، والفاو، والمحمرة، وشط العرب والفرات عبر البصرة، والقرنة، والعمارة، وكوت العمارة بغداد، وسامراء، وتكريت، وبعدها إلى كركوك، والطوق، وطوز، وحرمتلي، وكيفري، وخانقين، وشيراابان، وبعقوبة، وبغداد مرة أخرى، وبعدها المسيب، وكربلاء، والنجف. وعند عودته إلى روسيا أعدّ تقريرًا عن مهمته. وقد نُشر عدد محدود من نسخ هذا التقرير بواسطة القيادة العامة لمنطقة عبر القوقاز العسكرية في تفليس سنة ١٩٠٤م، وكانت مختومة بكلمة "سري"(٤٦).

يقدم لنا تقرير "شيلكوفنيكوف" معلومات عسكرية فريدة عن كتائب الفيلق التركي السادس، وليس هذا فحسب، بل إنه يصف في تقريره بشكل تفصيلي الوضع السياسي والديني في بلاد ما بين النهرين ومنطقة الخليج، وعن مشكلة خط حديد بغداد، ومواقف الدول العظمى، ونشاطات ممثليها الرسميين. كما أن عددًا من الصفحات خصص لحقول النفط في قصر شيرين(٤٧). ومشكلات

---

(٤٥) للتفاصيل انظر في أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي الملفات (٤١٧، ١، ٢٥٤٨، الأوراق ٨٩-٩٨).

(٤٦) "ب. إس. شيلكوفنيكوف"، مصدر سابق.

(٤٧) انظر أيضًا في أرشيف الدولة التاريخي في سانت بطرسبورغ الملفات: "برقية "غارتويج" Gartwig، القنصل الروسي في بوشهر حول حقول النفط في الجزيرة العربية" (المرجع الأرشيفي: ٣٧، ٦٦، ٩٠٨، مؤرخة في سنة ١٩٠٨) و "برقيات مندوب وزارة التجارة في عربستان حول إنشاء أنبوب نفط في فارس" (المرجع الأرشيفي: ٢٣، ٨، ٢٤، مؤرخة في ١٩٠٩ - ١٩١٠م).

الزراعة في المنطقة. كل هذه المعلومات تجعل من عمل "شيلكوفنيكوف" مصدرًا تاريخيًا مهمًا(٤٨).

تقارير الحجاج:

كما ذُكر سابقًا فإنه عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عُدَّ الحج من روسيا ظاهرة قد تؤثر بشكل كبير في درجة ولاء المسلمين في روسيا للحكومة الإمبراطورية. ولهذا السبب وجدت رؤى مختلفة، وفي بعض الأحيان متناقضة حول هذه المشكلة. فبجانب اليوميات الواسعة وتقرير "دولتشاين" المفصل تم نشر عدد آخر من الوثائق بوصفها ملحقات بكتاب : (الحج قبل مئة سنة) الذي قمت بإعداده.

إن مخطوطات حجاج تركستان الموجودة ضمن مجموعات مخطوطات أكاديمية العلوم الأوزبكية(٤٩) تعكس تقاليد الناس في آسيا الوسطى فيما يتعلق بالحج، ولا سيما ما يخص زيارة الكعبة. وأعمال من هذا النوع كتبت بلغات المسلمين المختلفة في الإمبراطورية الروسية يمكن أن تكون موجودة في مجموعات مختلفة من المخطوطات في الاتحاد السوفيتي السابق. اثنتان من هذه المخطوطات كتبت باللغة التترية وقد نشرها "ج. سابلوكوف"(٥٠).

ويقدم عمل الفقيه الإسلامي (سليم جيريي سلطانوف) رؤية ممثل الحركة "التحديثية" ضمن مسلمي روسيا(٥١). ومذكرات "أشييف" تبين موقف مسلم بعقلية أوربية وهو يعمل موظفًا في القنصلية الروسية بجدة(٥٢). وملحوظة الخبير الحكومي "تشيريفانسكي" تعكس

---

(٤٨) تقرير "شيلكوفنيكوف" وجزء كبير من المواد الأرشيفية الإضافية هي الآن في طور الإعداد للنشر باللغة العربية، إذ أقوم على إعدادها شخصيًا.

(٤٩) الحج قبل مئة سنة، ص ص ٢٦٩ - ٢٧٣.

(٥٠) "ج. سابلوكوف". قصص المسلمين عن القبلة. قازان، ١٨٨٩م.

(٥١) الحج قبل مئة سنة، ص ص ٢٧٥ - ٢٩٣.

(٥٢) المصدر السابق، ص ص ٣٩٤ - ٣١٠.

بشكل كبير رؤى قومي روسي(٥٣). كما أن الوثائق الرسمية الخاصة بوزارة الشؤون الداخلية التي تنظم حج المسلمين الروس كانت نتيجة لمناقشة خاصة وطويلة حول موضوع الحج(٥٤).

إن المجلد الثاني من كتاب (الحج قبل مئة سنة) يحتوي على مجموعة من الوثائق الجديدة التي تم الحصول عليها حديثًا حول الموضوع، وضمن هذه الوثائق يجدر ذكر تقارير وملحوظات "ماليوتين"(٥٥)، "غامازافوف"(٥٦)، "أوختومسكي"(٥٧)، "أنتاكي"(٥٨)، وجميعها مكرسة لمشكلات دعاية الحركة الإسلامية، والحركة القومية التركية في روسيا، وقائمة بشكل رئيس على خبرة شخصية تم الحصول عليها في مهمات إلى الشرق الأوسط. والوثائق المتعلقة بنقل الحجاج(٥٩) وأشياء أخرى توضّح جوانب أخرى لموضوع الحج(٦٠)

---

(٥٣) المصدر السابق، ص ص ٣١١ - ٣١٦.

(٥٤) المصدر السابق، ص ص ٣١٧ - ٣٤٩. وانظر أيضًا في أرشيف الدولة التاريخي في سانت بطرسبورغ الملفات الآتية: ٩٥، ٤، ٧٢٦، ١٥١١، ١٥، ٦٦؛ ١٢٦٣، ٢، ٥٦٠٧ .

(٥٥) أرشيف الدولة التاريخي في "سانت بطرسبورغ". المرجع الأرشيفي: ٣٩٥، ٣٨، ١٠٣، مؤرخة في سنة ١٨٩٤م.

(٥٦) المصدر السابق، ٨٢١، ٨، ١١٧٤.

(٥٧) المصدر السابق.

(٥٨) المصدر السابق، ٨٢١، ١٣٣، ٦٢٩.

(٥٩) المصدر السابق، ١٢٨٤، ١٨٨، ١٦٠؛ ٩٥، ١٨، ٦١٣؛ ٨٢١، ٨، ١١٩٦؛ ٨٢١، ٨، ١٢٠٢؛ ٢٣، ١٢، ١٥٠٧.

(٦٠) المصدر السابق، "عن العوائق التي واجهها التتار من مقاطعة تافريا عند مغادرتهم إلى مكة والمدينة" (المرجع الأرشيفي: ١٢٨٦، ١٧، ٨٦١، مؤرخة في السنوات ١٨٥٦ - ١٨٦٥م)، "عن الحج إلى مكة والمدينة" (المرجع الأرشيفي: ٨٢١، ٨، ١١٧٤؛ ١١٩٦؛ ١٢٠٢، مؤرخة في السنوات ١٨٦٥ - ١٩١٠م)، "المراسلات مع القسم الآسيوي بوزارة الخارجية وقسم البوليس حول بناء فندق في القسطنطينية للحجاج الروس ..." (المرجع الأرشيفي: ٨٢١، ٨، ١١٧٤)، "جمعية العناية بالحجاج المسلمين" (المرجع الأرشيفي: ١٢٨٤، ١٨٨ مؤرخة في ١٩٠٩م)؛ "حول تنظيم حج المسلمين الشيعة إلى بلاد ما بين النهرين وفارس" (المرجع الأرشيفي: ١٢٩٨، ١، ٢٥؛ ٢٨٩٢).

سيتم تحليلها ونشرها ضمن الكتاب. وبشكل عام فإن هذه الوثائق ستلقي ضوءًا جديدًا على الجوانب المختلفة للمشكلة، وتقدم للمختصين مواد جديدة لا تبين الصراع حول قضية الحج في روسيا فحسب، بل تاريخ الفكر الإسلامي عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وعلاقته مع صراع المرحلة السياسي.

تقرير عالم:

ضمن المواد الأرشيفية الأكثر إثارة عن الخليج يتوجب ذكر رسائل المختص بعلم الحيوانات (ن. ف. بوغويا فلنسكي) المرسلة إلى القنصلية العامة الروسية في بوشهر. وكانت جمعية هواة العلوم الطبيعية والإنثروبولوجيا والإثنوغرافيا التابعة لجامعة موسكو قد أرسلت هذا العالم للخليج في مهمة القيام بأبحاث علمية. وقد زار المحمرة والكويت والبحرين ومسقط⁽⁶¹⁾. وإنني - لسوء الحظ - لم أتمكن من إيجاد التقرير العلمي الذي كان على هذا العالم تقديمه إلى جامعة موسكو في تلك الفترة، وقد تم نشر سلسلة من الكتب التي كتبها علماء الحيوان، وعلماء الطبيعة، والرحالة الروس، في كل من موسكو وسانت بطرسبورغ، ولكن لم يكن ضمنها أي كتاب من تأليف بوغويا فلنسكي. وكيفما كان الأمر فإن علينا أن نذكر هنا احتمال أن يكون تمويل هذه البعثة العلمية إلى الخليج ذا علاقة بالمصلحة السياسية الروسية الواضحة في الخليج. وهذه عبَّر عنها بشكل واضح "م. ب. فيودوروف" في كتابه شبه الرسمي الموسوم بـ "تنافس المصالح التجارية في الشرق" الذي نُشر سنة ١٩٠٣م.

---

(٦١) توجد رسائل الاختصاصي في علم الحيوانات "ن. ف. بوغويافلينسكي" التي أرسلها إلى القنصلية الروسية العامة في بوشهر في ملفات أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي (٤١٧، ١، ٢٥١٢، الأوراق ١٠ - ١٧) وقد تم نشر هذه المواد في كتاب : سفن روسية في الخليج (الطبعة العربية، ص ص ١٠٣ - ١١٣؛ الطبعة الإنجليزية، ص ص ٨٣ - ٩٣).

في أواخر شهر أبريل ١٩٠٢م وصل "بوغويا فلنسكي" إلى البحرين حاملاً رسالة توصية إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأمضى في الجزيرة ثلاثة أسابيع، حيث استقبله الشيخ بحفاوة. وعندما أراد القنصل البريطاني من جمارك البحرين تفتيش حقائب الرحالة الروسي عارض الشيخ ذلك بحزم.

أحب "بوغويا فلنسكي" الغرفة التي أُعطيت له في مقر مبيت القوافل، لكن الشيخ أراد استئجار بيت له. وكان البيت الفارغ الوحيد آنذاك في البحرين مملوكًا لرجل فارسي يعمل وكيلاً لشركة الملاحة البريطانية - الهندية. وعندما رفض هذا الشخص ذلك تحت ضغط "هوبكنز" اشترى الشيخ محمد هذا البيت وأسكن فيه "بوغويا فلنسكي"، وأخبره لاحقًا أن هذا البيت سيخصص بعد إصلاحه للأشخاص الروس الذين يزورون البحرين(٦٢). وكان "بوغويا فلنسكي" يحصل على كل الأشياء التي يحتاجها بالأسعار المقررة للسكان المحليين وليس للأوربيين .

كان الشيخ يزوره يوميًا ويسأله عما إذا كان كل شيء على ما يرام، وخلال زياراته سأله الشيخ عددًا من الأسئلة المحددة؛ فعلى سبيل المثال سأله عن عدد السفن الحربية عند روسيا، ولماذا لا يوجد منها أي سفينة في الخليج ؟ وقد اتضح أن البريطانيين كانوا يروجون لرأي يزعم أنه ليس لدى الروس غير قوات برية وليس لهم قوات بحرية. وسأله الشيخ أيضًا عن العلاقات بين روسيا وتركيا، وعما إذا كان يوجد كثير من المسلمين في روسيا، وهل يعيشون في موسكو؟ وهل توجد لديهم مساجد؟ وبين أن البريطانيين يروِّجون أنّه يتم إرغام كل المسلمين على اعتناق المسيحية بالقوة، وأنهم - أي

---

(٦٢) من المحتمل أن هذا الأمر هو المقصود بالاستفسار الذي قدمه النائب "جبسون باولز "إلى وزارة الخارجية في شهر يوليو ١٩٠٢م، وعبر فيه عن القلق من المعلومات التي تشير إلى أن الحكومة الروسية اشترت قطعة أرض كبيرة جدًا في البحرين (انظر :The Parliamentary debates, v. 112, p. 131).

البريطانيين - على العكس من ذلك يبنون المساجد في بلادهم. وقال الشيخ: إن البريطانيين كانوا القوة الأوربية الوحيدة في الخليج، لذلك يتصرفون بحرية. وإن ظهور الطراد الروسي "فارياغ" في مياه الخليج منح العرب القوة لتعزيز معارضتهم لبريطانيا. وأراد الشيخ أن يعرف لماذا لا تستطيع روسيا إبقاء "فارياغ" بشكل دائم في الخليج؟ ولم تدخل الخليج حتى ذلك الزمن سفينة بضخامة "فارياغ"؟ وحسب قول "بوغويا فلنسكي" فإن سكان الساحل العربي كانوا مدهوشين جدًا بضخامة حجمها ومداخنها الأربع وإضاءتها الكهربائية التي لم تكن موجودة في السفن البريطانية المبحرة في الخليج، ولكن بعد زيارة "فارياغ" عمد البريطانيون إلى تجهيز سفنهم بإضاءة كهربائية، وأرسلوا إلى الخليج الطراد "أمفيتريد Amphitride" ولكن هذا لم يزعزع الانطباع الذي خلفته فارياغ. وقد روى الشيخ محمد أنه بعد زيارة "فارياغ" أعطاه عبدالرحمن بن فيصل والد مؤسس المملكة العربية السعودية رسالة موجهة إلى "أوفسيينكو" القنصل الروسي في بوشهر، وقد احتفظ الشيخ بالرسالة وأعطاها "بوغويا فلنسكي".

ورتب الشيخ محمد للقاء "بوغويا فلنسكي" بحاكم البحرين الشيخ عيسى الذي قابله بحفاوة بالغة، وسلّمه الشيخ رسالة منه إلى "أوفسيينكو". وهذه المقابلة لم تكن ممكنة إلا بعد مغادرة "هوبكنز" للجزيرة، لأنه فعل كل ما هو ممكن لمنع هذا اللقاء. حتى إنه كان يلاحق تاجرًا بحرينيًا بسبب بضعة أحاديث أجراها مع "بوغويا فلنسكي". وقد كتب العالم رسالة إلى "أوفسيينكو" يبلغه فيها بتصرفات البريطانيين وحسن ضيافة البحرين لأول روسي يزور البحرين. وبعد مغادرة "بوغويا فلنسكي" كان للشيخ محمد "علاقات عدائية" ليس مع البريطانيين في البحرين فحسب، بل أيضًا مع الأتراك في القطيف. ولم يكن استقبال "بوغويا فلنسكي" في المحمرة أقل حفاوة؛ فالشيخ خزعل الذي ذكر أنه صديق للروس أسكنه في

قصره، كما أن سكرتيره أطلع "بوغويا فلنسكي" على قصر آخر بناه الشيخ حسب تصميم الروسي "سيرومياتنيكوف". وعندما غادر المحمرة أرسل الشيخ معه حرسًا إلى الكويت.

في الكويت استقبل جابر الابن الأكبر للشيخ مبارك "بوغويا فلنسكي". وقد أرسل الابن في الحال في طلب والده الذي لم يكن حينئذ في المدينة. وجاء الشيخ مبارك على الفور ورحب بالعامل الروسي وأجرى معه حديثًا مطولاً. وقال له: "إنني أعُدُّ الروس أصدقاء لي، وأكون سعيدًا عندما يزورونني. وأنا على استعداد دائم لأن أقدم لهم كل ما أستطيعه، وأرجو أن تبلغوا "أوفسيينكو" الذي أعدُّه أخًا لي تحياتي ورغبتي في مراسلته".

كان "بوغويا فلنسكي" يحمل معه خريطة العالم. وعندما جاء الحديث عن مشروع خط حديد بغداد، طلب الشيخ من "بوغويا فلنسكي" أن يريه مسار هذا الخط على الخريطة، مضيفًا بأنه يرجو من الله أن يحمي الكويت من هذه المصيبة. وسأل الشيخ عن الزمن الذي تستغرقه الرحلة على هذا الخط من القسطنطينية إلى البصرة، وفي الواقع كان قد سأله عن عدد الأيام التي تحتاجها القوات التركية للوصول إلى حدود الكويت في حال نشوب أزمة، وطلب الشيخ منه أن يطلعه على حدود روسيا وبريطانيا وفرنسا، وكان مدهوشًا من مدى اتساع أراضي روسيا، شأنه في ذلك شأن الشيخ محمد. واستفسر الشيخ بالتفصيل عن أماكن وجود السفن الروسية، وفي كم يوم تستطيع الوصول إلى الكويت ؟ وأين "فارياغ" في ذلك الوقت ؟ وكم عدد السفن الروسية المماثلة لها ؟ ومتى سيجري مد طريق من روسيا إلى بندر عباس ؟

وحينما أراد "بوغويا فلنسكي" مغادرة الكويت بعد زيارة دامت أربعة أيام جاء الشيخ مبارك ليودعه. وعندما سأله "بوغويا فلنسكي"

عما يستطيع عمله لمجازاته على حسن الضيافة قال الشيخ مبارك: إنه يتمنى إبلاغ الإمبراطور بأنه صديق للروس و"يعدهم إخوانًا له"(٦٣).

وبالحفاوة نفسها استقبل "بوغويا فلنسكي" في مسقط في مطلع شهر يوليو ١٩٠٢م. وقد توصل "بوغويا فلنسكي" إلى الاستنتاج بأن جاذبية روسيا كانت عظيمة لدى السكان العرب في ساحل الخليج بوصفها دولة عظمى(٦٤).

تقارير الأطباء:

لقد أرسل الأطباء الروس وهم : مارك، يوست، رادزيفيتش، كورنويفسكي وباشكوفسكي، وشينيافسكي، الذين تعدّهم الصحافة البريطانية الهندية جواسيس - كما ذكر سابقًا - إلى ساحل الخليج بعد مؤتمر البندقية للطاعون، في مكافحة وباء الطاعون. وكان هؤلاء الأطباء يعالجون السكان المحليين مجانًا وهذا ما أثار ريبة خاصة.

وكان أحد هؤلاء الأطباء وهو الدكتور شينيافسكي، رئيس المستشفى العسكري في تفليس، الذي أرسلته اللجنة الروسية لمكافحة وباء الطاعون إلى الخليج قد تقابل في بوشهر مع قبطان السفينة "غيلياك". وأخبر شينيافسكي القبطان أنه بسبب وباء الطاعون في موانئ الهند البريطانية قررت فارس فرض حجر صحي في موانئها، وبما أنها لم تكن قادرة على ذلك بسبب التكاليف وافقت على العرض البريطاني بتوفير هذه التكاليف. لقد كان الحجر الصحي البريطاني - من وجهة نظر طبية - في وضع مرعب: يفتقد إلى الأطباء، والصيادلة، والأجنحة الخاصة في المستشفيات. ولكنَّ البريطانيين

---

(٦٣) المصدر السابق، ١٤. وهذا يُظهر أن مبارك استمر في سياسته الخاصة بالاتجاه نحو روسيا للمساعدة ضد بريطانيا بعد شهر مايو ١٩٠١. قارن مع: "بونداريفسكي"، مصدر سابق، ١٩٦٨، ص ص ٢٥٧ - ٢٦١.

(٦٤) المصدر السابق، ١٦.

كانوا يستغلون ذلك لأجل عرقلة تنقل الأشخاص غير المرغوب فيهم؛ فالمركب الذي كان يحمل القنصل العام الألماني الذي كان ينوي القيام بجولة في فارس وضع في المحجر الصحي في المحمرة لمدة (٢١) يومًا. وفي المقابل نزل رئيس التلغراف البريطاني إلى الشاطئ في اليوم نفسه الذي وصل فيه إلى بوشهر قادمًا من بومباي التي ينتشر فيها الطاعون(٦٥).

كما أن ارتفاع عدد الحجاج من روسيا، ووجود خطر الوباء في المنطقة أدى إلى ضرورة إرسال أطباء روس إلى جدة بهدف مساعدة المواطنين الروس والمواطنين المحليين. وحسب ما نعرفه حتى الآن فإن البعثات الطبية الروسية كانت مجهزة جيدًا؛ فعلى سبيل المثال كانوا يستخدمون أحدث الأدوية التي أعدتها المراكز العلمية في سانت بطرسبورغ(٦٦). وتقارير الأطباء الروس الذين كانوا في أغلبيتهم مسلمين، "سوكولوف"، "دالاغات"، "تولاتوف"، "تقييف" توجد في ملفات أرشيف الدولة التاريخي في سانت بطرسبورغ(٦٧). وتحتوي هذه التقارير على إحصاءات طبية مفصلة.

كما رأينا فإن الأرشيفات الروسية تحتوي على الجزء الرئيس من الوثائق المهمة؛ فضباط الاستخبارات أرسلوا إلى المنطقة بوصفهم علماء وحجاجا. ورسائل العالم الروسي هي تقارير وكيل سياسي أكثر من أي شيء آخر، وتقارير قباطنة السفن تحتوي على معلومات سياسية في المقام الأول، وتأتي معلومات الملاحة في المقام الثاني.

---

(٦٥) انظر أرشيف الدولة للأسطول البحري الحربي: ٤١٧، ١، ٢٠٣٧ الأوراق ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٦٦) أرشيف الدولة التاريخي في سانت بطرسبورغ: ١٢٩٨، ١، ٢٨٨٣، ورقة ٢٩.

(٦٧) المصدر السابق، المرجع الأرشيفي: ١٢٩٨، ١، ٢٨٨٦، تقارير سنوية مفيدة للسنوات ١٨٩٨ - ١٩٠٠م وانظر في: المصدر السابق، ١٢٩٨، ١، ٢٨٨٢ - ٢٨٨٣. انظر أيضًا: "عن الطاعون في الحجاز، موانئ ومحاجر صحية البحر الأحمر" (المصدر السابق، المرجع الأرشيفي: ١٢٩٨، ١، ١٣، ٢٨٨٣).

وعلى العموم فهذه الوثائق تعكس صورة معقدة للصراع الدولي على الجزيرة العربية ومنطقة الخليج، والمحاولات الناجحة للقادة المحليين لاتخاذ سياسات مستقلة، وكذلك تعكس مدى التداخل بين الشؤون الداخلية للمناطق المسلمة في روسيا وقضية الحج.

إن الوثائق المحفوظة في الأرشيفات الروسية التي لها علاقة بموضوعنا تشكل مجموعتين كبيرتين: المجموعة الأولى مخصصة للمشكلات المرتبطة ببناء خطين حديديين جديدين عبر تركيا وفارس؛ فمشروع خط بغداد كان يهدد المصالح الروسية في المنطقة؛ لذلك قوبل بأعمال مضادة من جانب روسيا، وكذلك المشروع الروسي في فارس قوبل بمقاومة بريطانية نشطة. أما وثائق المجموعة الثانية فتدور حول موضوع الحج التي تم التعامل معه بشكل رئيس على أنه وسيلة من وسائل دعاية الحركة الإسلامية(٦٨).

وتظهر هذه المواد مدى التداخل بين الجوانب المختلفة للسياسة الروسية الداخلية والخارجية (المسلمون في الإمبراطورية الروسية، والحركة القومية التركية، والحركة الإسلامية والسياسات الروسية في منطقة الخليج من خلال التنافس الروسي / الفرنسي مع كل من بريطانيا العظمى، وألمانيا).

إن هذه الوثائق يمكن استخدامها مصدرًا مهمًا لإعادة بناء التاريخ المحلي للجزيرة العربية ودول الخليج. وحسبما أرى فإنه لا يمكن كتابة مثل هذا التاريخ دون البحث المتعمق في مواد الأرشيفات الروسية.

---

(٦٨) انظر، على سبيل المثال المواضيع الرئيسة التي تمت مناقشتها في: "المراسلات المتبادلة مع ممثلي وكالة بطرسبورغ للتلغراف في الجزيرة العربية" (المصدر السابق، ١٣٥٨، ١، ٩٧٩).